كتاب الدوحة

آباي

كتاب الأقوال

ترجمة :عبدالسلام الغرياني





آباي

كتاب الأقوال

ترجمة عبدالسلام الغرياني

كتاب الدوحة 54

يوزع مجاناً مع العدد 97 من مجلة الدوحة نوفمبر 2015

آباي

كتاب الأقوال

ترجمة عبدالسلام الغرياني

الناشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

الإخراج والتصميم: علاء الألفي - مجلة الدوحة

مقدِّمة

القرن التاسع عشر، تقود أوروبا العالم في الازدهار والتنوير، بفضل أشخاص عظماء، ما زال التاريخ يدين بفضلهم على الإنسانية. لقد قادوا مجتمعاتهم إلى التحرُّر من قيود الجهل والتخلُّف، وظهرت تيارات قويّة استقطبت آلاف المؤيِّدين والمتحمِّسين، لما فيها من الصدق والمعرفة والخلاص من نير الظلام والإفك والعبودية، فيما ظل البقيّة تحت سياط الاضطهاد الفكري والتقاليد البالية، لكن السجيّة الإنسانية موجودة في كلّ زمن وكلّ عصر.

في هذه الأجواء، وفي منتصف ذاك القرن، وُلِد إبراهيم قونانباي عام 1845، في جبال جنكيز، لعائلة معروفة في كازاخستان الشرقية، والده متزوِّج بأربع نساء، وهو إقطاعي وشيخ قبيلة طوبقطي. الوالدة (أولغان) أثّرت في الطفل، وحَظِي برعايتها الكاملة، وكانت تُطلِق عليه اسم (آباي) تحبُّباً، وهو تصغير لإبراهيم، وتعني الكلمة (المتمعِّن الحذر) أيضاً، وهذا

الاسـم صاحَبَـه طـوال حياتـه.

أرسـله والـده إلـى مدرسـة دينيـة يديرهـا المُـلّا أحمـد زيـرا، لكـنّ الفتـى خالـف زمـلاءه الذيـن يدرسـون الديـن فقـط، بـأن وسّـع مـن دائـرة معارفـه باهتمامـه بالشـعر، موقظـاً روح الكلمـة البديعـة التـي غرستها فيـه جدّتـه (زهـرة) التـي كانـت تغنّـي لـه الأهازيـج والألحان، إضافـة إلـى الحكايـات والأسـاطير وقصـص الأبطـال.

أخـذ يتـردّد إلـى المدرسـة الروسـية، بالإضافـة إلـى دراسـته فـي المدرسـة الإسـلامية، وعشـق اللغـات الشـرقية، وواظـب علـى تعلُّـم العربيـة والفارسـية.

كانـت الأغانـي والقصائـد تنتشـر فـي مجتمعه عن طريق المشـافهة، ويتناقلهـا جيـل بعـد جيـل. وعنـد تمكّنـه مـن اللغـة والكتابـة، أخـذ يـدوِّن تلـك الأشـعار، ويزيـد عليهـا مـن عنـده، ويطـوِّر القصائـد، ويبـدع فـي صقلهـا؛ ممـا يـدلّ علـى موهبتـه المبكِّـرة فـي الأدب.

تجربتـه هـذه، جعلـت منـه خطيبـاً مُفَوَّهـا، وكان والـده يعـوّل عليـه فـي خلافتـه بالمشْـيَخة، مفاخـراً بابنـه الموهـوب.

اسـتدعاه والـده ليدرِّبـه علـى إدارة شـؤون القضـاء والأعمـال الإداريـة، ليتصـدّى لأعدائـه المنافسـين، لكـن الشـاب الـذي جُـرّ عنـوةً إلـى هـذه القضايـا المرهِقـة، غالبـاً مـا كان يعـارض مصالـح أبيـه ومطامعـه، بتقديمـه للحـلّ العـادل فـي كثيـر مـن القضايـا. وحدثـت خلافـات حـادّة بينهمـا قاربـت حَـدّ القطيعـة،، لكـن المسـألة حُلَّـت

عندما بلغ (آباي) الثامنة والعشرين، بانصرافه إلى تعلُّم اللغة الروسية التي انقطع إليها مُدّة طويلة.

أعجب بمؤلِّفات كلّ من بوشكين، وليرمنتوف، وكريلوف، وتولستوي، وأعمال أخرى لأدباء ألمان، مثل غوته، وترجم أعمالهم إلى اللغة الكازاخية، بأسلوب يفهمه الناس.

إلى جانب ذلك، كان يتمتَّع بموهبة التلحين، فلحّن أشعاراً استحدثت في الشعر الكازاخي أشكالاً جديدة، لم تكن معروفة سابقاً.

لقد تداول الكازاخ، في ذلك الوقت، الملاحم الشرقية الكبيرة، بألفاظ (آباي)، مثل: الشاهنامة، ومجنون ليلى، وكير أوغلي.

أرسل أبناءه إلى المدرسة الروسية: ابنته (غولبادان)، وابنيه (عبدالرحمن) و(معاوية)، وكان (معاوية) وابن (آباي) البكر (عقيل) قد أصبحا شاعرين فيما بعد، ونظم (معاوية) ملحمة «مقدام ـ قاسم» بتوجيه من (آباي)، ونظم عقيل ملحمة عاطفية بعنوان «داغستان».

لقد توالت النوائب على المفكِّر والأديب الكبير؛ فبالإضافة إلى قلقه الوجودي، نزلت عليه فاجعة وفاة ابنه (عبدالرحمن) بداء التدرُّن الرئوي، ورثاه بقصائد حزينة، ثم لحقت به نائبة أخرى بوفاة ابنه (معاوية)، الشاعر المبدع، بالمرض نفسه الذي

قضـى علـى شـقيقه.

بعـد أربعيـن يومـاً مـن وفـاة (معاويـة)، توفـي (آبـاي)، وهـو فـي التاسـعة والخمسـين، وذلـك عـام 1904، ودُفِـن قـرب منزلـه بالقـرب مـن جبـال جنكيـز.

يصـل (آبـاي) أوج إبداعـه فـي ثمانينيـات القـرن التاسـع عشـر مـع «كتـاب الأقـوال»، ومضمونـه الأسـاس يـدور حـول تأمُّـلات الكاتـب فـي مغـزى الحيـاة ورسـالة الإنسـان، وعـن الشـعب وعذابـه؛ بكلمـات تئـنّ بالألـم والشـكوى. و«الأقـوال» نظـرة ثاقبـة إلـى مجتمعـه، يصـف فيهـا حيـاة شـعبه، وينتقـد- بشـدّة، وبسـخرية- السـلبيات التـي تؤخِّـر تقـدّم المجتمـع إلـى الأمـام. فـي النصـف الثانـي مـن القـرن التاسـع عشـر دعـا، بحمـاس، إلـى التخلُّـص مـن كلّ مـا يحـطّ مـن كرامـة الإنسـان، كمـا دعـا إلـى التسـامح، وإلـى سـلوك طريـق المعرفـة، وقَـدَّم الإسـلام المسـتنير بمنـأى عـن التعصُّـب.

يُعَـدّ (آبـاي) عميـد الأدب الكازاخـي الحديـث، ويعتـزّ باللغـة الكازاخيـة وبالشـعب الكازاخـي. وبالمقابـل، يجـلّ الـكازاخ أديبهـم الكبيـر، ويتغنّـون بشـعره، وبأدبـه، وبقصصـه، وبحكمـه.

كتـب أعمالـه باللغـة الكازاخيـة القديمـة السـائدة ذاك الوقت، ذات الحـروف العربيـة، والآن، نجـد أعمالـه باللغـة الكازاخيـة الحديثـة وباللغـات الأخـرى، حيـث تُرِجمـت مؤلِّفاتـه، وبخاصّـة «كتـاب الأقـوال»، إلـى أغلـب لغـات العالـم.

إنه معروف على المستوى العالمي، كشكسبير، وغوته، وبوشكين.

لم يصلنا سوى مختارات من شعره، بالعربية، نشرتها دار التقدُّم، في موسكو، عام 1970، بترجمة جيلي عبدالرحمن.

«كتاب الأقوال» أصبح من أنبل الكتابات الجادّة في مسيرة الأدب العالمي.

في كازاخستان، ثمّة جامعة باسمه، وله تماثيل في كثير من مدن كازاخستان، وكذلك في موسكو.

عام 1995، أُنتِج فيلم عن حياته بعنوان «آباي».



آباي

كتاب الأقوال

1

ســواء أكنــتُ بصحــة جيــدة أم لــم أكــن، فقــد عشــت حياتــي، علــى امتدادهــا، مفعمــاً بالكفــاح والنقــد والنقــاش والمناظــرة، معانيــاً وقلقــاً، لأجــد نفســي، مــع مــا تقــدَّم مــن ســنوات عمــري، تَعِبــاً مــن كل شــيء.أدركت عبــث جهــدي وفراغــه، ومعنــى وجــودي. بمــاذا أشــغل نفســي، الآن وبقيــة حياتــي؟ أنــا فــي حيــرة، لأننــي لــم أجــد إجابــة عــن هــذا الســؤال.

هــل أحكــم النــاس؟ النــاس غيــر قابلــة للحكــم. ليضــع أحــد مــا علــى كاهلــه هــذا العــبء: شــخص مريــض بــداء الحكــم العضــال، أو آخــر متحمِّــس بقلــب متوهِّــج. ذلــك أن اللــه أعفانــي مــن هــذا الحمــل الــذي هــو فــوق طاقتــي! هــل أضاعــف قطعــان أنعامــي؟ لا، أبــداً، دع الشــباب ينمّــون دوابهــم، إن هــم فــي حاجــة إليهــا؛ لأننــي لــن أظلــم مســاءات أيامــي راعيــاً للمواشــي لأهــبَ المتعــة للأوغــاد واللصــوص والطفيلييــن.

أأشغل نفسي بالتعليم؟ لكن، كيف أنهمك في ثقافة، عندما لا أجد أحداً أتبادل معه كلمة ذات معنى؟ ثم، لمن أعطي معرفةً جمّعتها؟ من أسأله عن شيء، أنا نفسي لا أعرفه؟ ما جدوى الجلوس في سُهْب قفر، والأرشين[1] في اليد، محاولاً بيع القماش؟ كثير من المعرفة تُصبح بطعم المرارة وتعجّل بنهاية العمر، عندما لا تجد أحداً بجانبك يشاركك البهجة والحزن.

أأختار نهج الصوفية، وأهب نفسي لخدمة الدين؟ لا، أخاف من هذا الفعل أيضاً. هذه المهمّة تتطلّب السكينة، والسلام التامّ للذهن. لكني لم أعرف السلام في روحي أو حياتي! ثم ما نوع التقوى الموجودة، الآن، بين الناس، وعلى هذه الأرض!؟.

هل أُعَلِّم الأطفال؟ لا، هذا- أيضاً- فوق طاقتي. في الحقيقة أستطيع تعليمهم، لكن، لا أعرف ما الذي يجب أن أعلِّمهم إياه، وكيف؟ ولأيّة وظيفة، ولأيّ غرض، ولأيّ نوع من المجتمع أعلِّمهم؟ كيف أعلمهم وأوجِّههم في طريق، يستطيعون فيه تطبيق ما تعلَّموه، وبشكل مفيد؟.

إلى هنا، أجد نفسي غير مؤهَّل للقيام بأيّ عمل.

حسناً، أخيراً قررت: من الآن فصاعداً، سيكون القرطاس والقلم

1- - أرشين: قصبة قياس للطول تساوي 28 إنشاً، استُعملت قديماً.

عزائـي الوحيـد، سـأدوِّن أفـكاري، لعـلّ شـخصاً يجـد فيهـا شـيئاً مفيـداً، ليستنسـخها أو يتذكّرهـا. وإذا لـم يجـد فيهـا مـا يحتاجـه، فسـتبقى لـي وحـدي، علـى أيّـة حـال.

والآن، ليس لديَّ شيء أهمّ من هذا الأمر.

2

في طفولتي، اعتدت سماع الكازاخ يسخرون من الأوزبك: «أنت تقفز في تنورة واسعة، تجلب السَّمار[1] من بعيد لتسقّف بيتك بالقشّ! تنحني وتُرجع قدماً إلى الوراء، ماسحاً الأرض تحيّةً، عندما تقابل شخصاً ما، لكنك تحقّره من ورائه. تخاف من كل أجمة، تثرثر دون توقُّف، لهذا ينادونك بـ «سارت سورات»»[2].

إن صادف الكازاخي واحداً من الـ «نوغاي»[3]، يسخر منه، ويوبِّخه بعنف أيضاً: «النوغاي يخاف من الجمل، وسريعاً ما يتعب من مفرج ساقيه على الحصان، ليكمل بقية طريقه ماشياً. يذهب

1- - السَّمار: نبات تُستعمل أوراقه الأسطوانية الطويلة في صنع مقاعد الكراسي، وأشياء أخرى.

2- - سارت سورات: عبارة كازاخية تعني: (شخص ثرثار).

3- - نوغاي : مفردة كازاخية، الاسم الذي يطلقه الكازاخ على التاتار.

بعيـداً ليكـون جنديـاً أو تاجـراً، الجميـع يمطـر النوغـاي: «نـوكاي[1] هو ما يجب أن ننعتك به، وليس نوغاي!».

أمـا عـن الـروس فقـد اعتـادوا القـول: «ذات مـرّة، حـاول ثـور مـن نـوع أورس[2] ذي الـرأس الأحمـر البحـث عـن قريـة مـن طـراز اوول[3] فـي نوبـة عَـدْو سـريعة، فكسـر عنقـه وهـو يبحـث عنهـا، الروسـي يفعـل مـا يخطـر فـي بالـه، ويصـدّق كل مـا يقـال لـه».

«يـا اللـه!». قلـت عندهـا بفخـر. «صرخـت، بأنـه ليـس ثمّـة، فـي العالـم، مـن هـم أكثـر إجـلالاً ونبـلاً مـن الـكازاخ!»، قـد يبهجنـي مثـل هـذا الحديـث ويسـلّيني، لكـن مـا أراه الآن كالآتـي:

ليـس ثمّـة شـجرة إلا ويسـتطيع الأوزبكـي الاعتنـاء بهـا، ليـس ثمّـة بقعـة إلا وزارهـا تجّارهـم، ليـس ثمّـة شـيء إلا وطوّرتـه أناملهـم الرشـيقة. رجالهـم ينعمـون بالسـلام، ولا يبحثـون عـن أعـداء. قبـل مجـيء التجـار الـروس،كان الأوزبـك يمـدّون الـكازاخ بالملابـس فـي الحيـاة، وبأرديـة الدفـن عنـد المـوت، إنهـم يشـترون قطعـان الماشـية

1- - نوكاي : مفردة كازاخية تعني: (بليد، غبي)، وهنا تلاعُب بالكلمات بين نوغاي و نوكاي.

2- - أوروس: ثور بري منقرض، سلف الثور الحالي، كان يوجد، على نطاق واسع، في النصف الشرقي من الكرة الأرضية، يتميز بالضخامة، وبجمجمته المسطّحة.

3- - أوول: قرية محصّنة، كانت موجودة في أنحاء جبال القوقاز، وخصوصاً في داغستان، مبنية من الحجر على أحد التلال أو المنحدرات من أجل توفير حماية ضدّ الهجمات المفاجئة، وهي عصية على الاقتحام، بسبب نظام البناء الداخلي فيها. أنهكت الروس كثيراً.

كلّها من الكازاخ، عندما لا يتفاهم الأب مع ابنه في تقسيم القطعان بينهما.

الآن مع مجيء الروس، تبنّى التاتار التجديد بشكل أسرع من غيرهم. يعلون من شأن «البيّات»[1] ويعلّمون الملالي، هم أصحاب مهنة وترف وكياسة، نعم الأوزبك يملكون كل ذلك. انظر إليهم الآن، يستطيعون تكوين جيش مهاب، يتحمّلون الحرمان برزانة، يواجهون الموت باتّضاع، يشيِّدون المدارس ويحمونها، ويحترمون الدين، يعملون بمشقّة، وينمّون ثروتهم، يلبسون بشكل متأنِّق، ويعرفون المرح.

لسنا نحن الكازاخ. فكرت: نعمل عند «بيّاتهم» من أجل كسرة خبز، لا يسمحون لبيّاتنا بدخول منازلهم، يقولون: «أنت، أيّها الكازاخي: أرضيّة بيتنا ليست لدوس حذائك القذر».

لن أتكلَّم على الروس، لن نستطيع حمل شمعة مقابل خدماتهم.

أين ذهب مرحنا السابق؟

أين ضحكنا السابق؟

1- - بيّات : جمع «بيْ». بيْ، وبيه، و بك: لقب تشريف في ليبيا و تركيا ومصر، جرى استعماله. البك: حاكم مقاطعة ثانوية في الإمبراطورية العثمانية. الباي: لقب حكّام تونس القدماء.

3

عندما يكون الكذب سبباً في نفور الكازاخ، بعضهم من بعض، من مرض العداء المتفشّي بينهم، لماذا هم حديثهم نفاق، ويبليهم الكسل، ومتهافتون على امتلاك القوّة؟

حكماء الدنيا لاحظوا من قديم الزمان: الكسول- عموماً- جبان وضعيف الإرادة، ضعيف الإرادة ومتبجّح: المتبجّح جبان وغبيّ وجاهل: الجهول ليس لديه إلماعة الاحترام، زد على ذلك أنه طفيلي ونهم، منطلق العنان وغير صالح لشيء: لا يقدّم أيّة فائدة للناس من حوله.

مصدر هذه الرذائل أن شعبنا منهمك في شيء واحد لا غير: أن يمتلك أكبر عدد ممكن من المواشي ليظفر بالفخر والاحترام. هل زرعوا أرضاً أو مارسوا التجارة؟ هل اهتموا بتعلُّم الفن؟ لم

يتحوّلوا إلى هذه الاهتمامات قَطّ.

الآباء يكاثرون قطعانهم، سيبذلون ما في وسعهم لضمان نموّ قطعان أبنائهم، يعهدون بها إلى الرعاة، فيما ينصرفون إلى حياة الكسل والتبطّل، يأكلون اللحم بِنَهَم، ويشربون «الكومس»[1]، يلهون بالنساء الجميلات، ويمتّعون أبصارهم بسباق الخيل.

أخيراً، يصبح عشب المرعى الشتوي قصيراً جداً، يستخدمون نفوذهم ومكانتهم، وبالسلب والخداع والتملُّق يسطون على أراضي جيرانهم، هذا الشخص الذي تعوّد على السلب سرعان ما ينهب جاراً بعد آخر، أو يسرق آخر غادر بلدته.

هل يأمل هؤلاء القوم الخير، بعضهم من بعض؟ عندما يعمّ الفقر يعمّ العمل التافه الرخيص. عندما يكثر المعدمون تغزر المراعي الشتوية العامّة. جاري متلهِّف إلى خرابي، وأنا متلهِّف إلى وقوعه في الفقر المدقع. شيئاً فشيئاً، ينمو الحقد الدفين فيغدو عداوة مُرّة ظاهرة. نتقاضى بمكر، ننقسم إلى زمر، ونرشو أصحاب النفوذ من أجل الدعم، لكسب فائدة ضدّ الخصم، ثم نتدافع على المنزلة الاجتماعية، تعويضاً.

الخاسر لن يكدح أو يعرق، سوف يبحث عن النفوذ عند آخر

1- - كومس : شراب مخمُر كانت تصنعه- في الأصل- قبائل آسيا الوسطى، من لبن الفرس.

بشكل مراوغ، لن يُظهر ميلاً للتجارة أو لحرث الأرض، سيقف بجانب شخص ما تارةً، وبجانب فريق آخر تارةً أخرى، يبيع نفسه بالرخيص، ويتورّط في الفاقة والخزي. ليس ثمّة نهاية لسلب السهْب. إن كان ثمّة وحدة بين أهلنا فلن يغفروا للص أن يستعمل دهاءه ومساندة آخرين له، ليستمرّ في سرقته الصفيقة.

الأبناء الأبرياء، وهم على درجات الحياة، يكونون ضحايا لهذه الأعمال الإجرامية، على قاعدة اتّهامات باطلة، ويكونون مادّة للذلّ والاستجواب.

الشهود على استعداد للقسم أنهم لم يشاهدوا، أو يسمعوا ما يشوِّه سمعة رجل صادق لمنعه من تولّي وظيفة أو منصب. لإنقاذ نفسه، يلجأ المُضطهَد إلى الأوغاد أنفسهم، مضحّياً بكرامته، وإن لم يذعن لهم فسوف يجني على نفسه، سوف يعاني المشقَّة والعوَز، سوف لن يجد مكاناً يليق به.

لكسب القوّة بالخداع والمخاتلة، رئيس المقاطعة (المتصرِّف) يتجنَّب مَنْ هو صادق، والناس البسطاء، ويعدّهم كما البلاء، يبحث عن غريب مثله، ماكر وملتوٍ، يخيف الخصوم.

ثمّة قول يزداد تداوله الآن: المهمّ والمؤثِّر، ليس صلابة الموضوع وقوة الحجّة، بل الشخص المناسب للتأثير في الموضوع.

رؤساء المقاطعات (المتصرِّفون) يُنتخَبون لثلاث سنوات: تمضي السنة الأولى في سماع كلّ أشكال الشكاوى للناخبين: «لا تنسَ أننا نحن من انتخبك» والسنة الثانية في صراع الخصوم والمتنافسين، وفي الثالثة ينشغل بالحملة الانتخابية. ماذا تبقّى إذاً؟

أشاهد قومي يغرقون، بشدّة، في النزاعات، خرجت باستنتاج هو: يجب أن يُنتخب الحاكم (المتصرِّف) الذي يتوافر على تعليم روسي، مهما كان قليلاً. وإن لم يوجد ذلك الشخص، أو أن الناس لا تريد ترشيحه، فليكن الحاكم معيَّناً من قِبَل الإدارة التنفيذية للمقاطعة الكبرى ومن الحاكم العسكري.

هذا سوف يكون مفيداً في عدّة نواحٍ: أولاً: طموح الكازاخ في تعليم أطفالهم، ثانياً: بعد وقت، ليس بطويل، يخضع المتصرِّف لهوى الأقطاب المحليّين، لكنه يتلقّى الأوامر من السلطات العليا. لتجنُّب الاعتراضات المحتومة والاتّهامات، المعيَّن لن يكون موضوعاً لأيّ حكم أو رقابة محليّة، وتأكيد شيء بشأنه.

أُتيحت لنا الفرصة لرؤية عبث القضاة المحلّيّين المنتخَبين في كلّ مقاطعة. ليس ثمة من يستغني عن العدالة. ولوجوب التحصُّن بالمشورة، من الجوهري أن نستحضر قوانين الأسلاف وشرائعهم:

«الطريـق المضـيء» لقاسـم خـان، و«الطريـق القديـم» لعاصـم خـان، و«القواعـد السـبع» لأزطـاوق خـان. لكـن هـذه الشـرائع أصبحـت عتيقـة ومهملـة بفعـل الزمـن، وتتطلَّـب التنقيـح والتفسـير والتقويـم، إن كان ثمـة مـن يسـتطيع القيـام بذلـك فـي مجتمعنـا. الذيـن يعرفـون أسـلوب حيـاة الشـعب الكازاخـي يقولـون:«عندمـا يلتقـي اثنـان مـن القضـاة المحلّيّيـن سـيكون ثمّـة أربعـة خلافـات، بالتأكيـد». النقيصـة الأبـرز فـي عدالـة هـؤلاء القضـاة وفـي عددهـم، هـؤلاء الذيـن يسـمعون القضايـا، كمـا أنهـا تكمـن فـي تعقيـد الحكـم القضائـي فـي النزاعـات. لمـاذا عـدد القضـاة يـزداد؟ أليـس مـن الأفضـل انتخـاب ثلاثـة أشـخاص يتميّـزون بتعليـم وذكاء، فـي كلّ مقاطعـة، لفتـرة غيـر محـددة، ونسـتبدل، فقـط، مـن يكـون سـلوكه غيـر لائـق؟ لتُحـدّد النزاعـات القانونيـة مـن قِبَـل حَكَميـن: واحـد يُختـار مـن كلّ طـرف، والوسـيط مقبـول مـن الجميـع. عندمـا يفشـلون فـي التحقُّـق مـن الصـواب، يجـب، عندهـا، الرجـوع إلـى القضـاة الثلاثـة الدائميـن. عنـد ذلـك، لـن يطـول أمـد القضيـة.

4

لاحظ الأسلاف، منذ زمن بعيد، أن الضحك دون سبب كحالةِ مَنْ هو ثَمِل. نرى، الآن، أن الثَّمالة تقود إلى سوء السلوك، فالحديث مع السكّير يوجع الرأس.

المرء الذي ينغمس، على نحو متواصل، في مرح لا معنى له، يتجاهل وعيه، ويهمل شؤونه، ويخطئ خطأً فادحاً في حَقّ من يُوقع به القصاص، إن لم يكن في هذا العالم، ففي العالم الآخر.

مَنْ لديه رؤية تأمُّلية واسعة، هو حصيف ومتبصّر وحَذِر في حركته، في هذه الحياة، وفي مواجهة الموت، التعقُّل في التفكير والعمل هما عماد سعادته، لكن، هل يعني هذا أننا يجب أن نعيش في بؤس؟ هل يجب على أرواحنا أن تعرف الكآبة فقط؟ كلّا، على الإطلاق. لا أقول هذا الكلام لأنه علينا أن نحزن دون

سبب، بـل يجـب أن نتوقّـف ونفكّـر فـي إهمالنـا، وسـبل السـعادة والمـرح نتركهـا إلـى حينهـا، ليـس المـرح الكاذب مـا يشـفي أرواحنا، بـل العمـل العقلانـي المفيـد، الذيـن يسـمحون للـروح الضعيفـة بـأن تستقرّ داخلهـم يتخلّـون عـن التفكيـر السليم دون الظفـر بـأيّ عـزاء أو سـلوى. إذا ضحكـت بحماقـة وغبـاء تفقـد المبـرِّر الأخلاقـي للعمـل الخـلّاق، إذاً، لا تفـرح بهـذا الغبـاء الأخـرق.

عندمـا تـرى شـخصاً مـا يعيـش حيـاة هانئـة، ويضحـك بقلـب سـعيد، ببهجـة صادقـة، يعـفّ بنفسـه عـن العمـل الخاطـئ ومعاقـرة الخمـرة، مآثـر هـذا الشـخص تسـتحقّ المحـاكاة، وهـي مثـال جيِّـد لتعليـم التواضـع.

ليـس كلّ ضحـك ومـرح يسـتحقّان الاستحسـان، ثمّـة ضحـك لا يأتـي مـن فـؤاد المـرء، كمـن يتكلَّـم فجـأةً، بـكلام أجـوف، ويُحـدث ضجيجـاً مُفزعـاً، فقـط، بقصـد الابتهـاج الـكاذب.

يأتـي المـرء إلـى الدنيـا باكيـاً، ويغادرهـا متأسِّـفاً. بيـن حـدث المجيء وحـدث المغـادرة، ينفـق أيّامـه فـي جـدالات بائسـة، ويسـرف فـي النزاعـات التافهـة، غيـر مـدرك فـرادة الحيـاة وكيفيـة الاسـتفادة منهـا، ولـن يـذوق طعمـاً للسـعادة الحقيقيـة.

سـيتوقّف ليراجـع أفـكاره، عندمـا يـرى حبّـات رمـل حياتـه تنهـار

دفعة واحدة، عندها، فقط، سيتّضح أنه ليس ثمّة كنز على وجه الأرض قادر على إطالة عمره يوماً واحداً.

أن تعيش بالأكاذيب، بالخداع والاستعطاء! أن تكون عديم القيمة كالأوغاد!

ليكن إيمانك بالله دافعاً لثقتك في قوتك وقدراتك.

الأرض القاحلة تهب الغلال- أيضاً- لمن يكدح وينكر ذاته، بأمانة وتواضع.

5

الحــزن يجلــب الكآبــة إلــى الــروح، يبــثّ القشــعريرة فــي البــدن، يجعـل المـرء فاقـداً لحـسّ فعـل الخيـر، عندهـا تنفجـر الانفعـالات بالكلمـات أو الدمـوع. رأيـت النـاس يتضرّعـون: «يـا اللـه، اجعلنـي خاليـاً مـن الهـمّ كمـا الرضّـع» يتخيّلـون أنفسـهم بأنهـم يقاسـون الغـم والبليـة وسـوء الحـظ، ويعتقـدون بأنهـم أكثـر حساسـية مـن الأطفـال. يمكــن الحكــم علــى هــذا الســلوك مــن خــلال الأمثــال: «إن كنــت ســتعيش حتــى الظهيــرة فــزوّد نفســك باحتياطــي لطــوال اليــوم». و«حتـى الأب يكـون غريبـاًبالنسـبة إلـى المتسـوِّل»، و«قطيـع الماشـية بالنسـبة إلـى الكازاخـي هـو جـزء مـن لحمـه ودمـه»، و«الرجـل الثـري يشـعّ الضـوء مـن مُحَيّـاه» و«الفقيـر قـاسٍ كالحجـر» و«الفـارس والذئـب لا يَحِيْـران فـي غذائهمـا»، «المتبطِّـر يعهـد بقطعانـه إلـى الآخريـن، إلا إذا كان ليـس لديـه مـا يشـغل نفسـه بـه»، و«اليـد التـي

تأخـد تعطـي»، و«الـذي يخطّـط لأن يكـون ثريّـاً، هـو دائمـاً علـى حقّ»، و«إن لـم تسـتطع الاعتمـاد علـى «البـيّ» لا تتّـكل علـى اللـه أيضـاً »، و«إن قرصـك الجـوع اركـض إلـى وليمـة فـي عـزاء ميّـت»، و«كـن حـذراً مـن بحيـرة بـدون ميـاه، و«مـن النـاس الذيـن لا يعرفـون الرحمـة».

ثمة الكثير من هذه الأمثلة.

الآن، ماذا تريد هذه الأمثلة أن تخبرنا؟

إنهـا ليسـت معرفـة أو تعليـم ولا سـكينة أو عدالـة، الكازاخـي يقلقـه أمـر وحيـد عزيـز، هـو كيـف يكـون غنيّـاً. لذلـك يلـفّ ويـدور ويتملّـق الأغنيـاء، وإن لـم ينجـح سـيعتبر العالـم بأسـره عـدوّاً لـه.

سـوف لـن يتـردّد فـي سـلب، حتـى والـده. ليـس مألوفـاً لدينـا لـوم مَـنْ، واسـتهجان مـن!

مـن يكسـبون قطيعـاً مـن الماشـية بالخـداع والسـلب والنهـب أو جرائـم أخـرى. إذاً، بـمَ يختلفـون عـن الأطفـال؟

الأطفـال يخافـون مـن لهـب الموقـد، فـي حيـن لا يخـاف الكبـار مـن نـار جهنّـم. يتمنّـى الأطفـال أن تبتلعهـم الأرض عندمـا يشـعرون بالخجـل، لكـن الكبـار لا حيـاء لهـم.

هـل هـذا يجعلهـم أفضـل مـن الأطفـال؟ إن لـم نمنحهـم مـا نملـك، إن رفضنـا أن ندعهـم يدمِّرونـنـا، إن لـم ننـزل إلـى مسـتواهم، سـوف يديـرون لنـا ظهورهـم.

هل يجب أن نمنح هؤلاء القوم كلّ حبّنا؟

6

وفقاً للمثل الكازاخي: «مصدر النجاح هو الوحدة والتوافق، وعمل الخير»، إذاً، من هم هؤلاء القوم الذين يعيشون في انسجام وتوافق؟ وكيف يحقِّقون مثل هذا الإنجاز؟

الكازاخ يجهلون هذا الأمر. إنهم يعتقدون أن الانسجام يكمن في امتلاك قطيع من الماشية على غرار الآخرين، وامتلاك مقدرات العيش، من غذاء وكساء.

إن تحقَّق ذلك، فما جدوى الثراء والفقر؟

هل سيكون العمل، بجدّية، جديراً بالاهتمام، للحصول على ثروة، دون التخلُّص- بالدرجة الأولى- من الأصدقاء والأقارب؟

لا، الانسجام والوحدة يجب أن يكونا في عقول الناس، لا في

مشـاعة الثـروة.

مـن الممكـن توحيـد أنـاس متباينيـن مـن حيـث المنشـأ والأخـلاق والديـن، بإغـداق الماشـية عليهـم بسـخاء، ولكـن بلـوغ الوحـدة بثمـن كالماشـية، هـو بدايـة الانحطـاط الأخلاقـي. الأخـوة يجـب أن يعيشـوا فـي سـلام، ليـس بسـبب اِتّـكال الواحـد علـى الآخـر، بـل بالتعويـل عليـه، فـي حذقـه وقوتـه وقدرتـه. وإلا فسـوف ينسـون اللـه، ولـن يجـدوا مهنـة لائقـة. سـيدبّرون المكائـد، بعضهـم ضـدّ بعـض، سـوف يغرقـون فـي الاتّهامـات والقـذف، سـوف يخادعـون ويخاتلـون. عندهـا، أيّ نـوع مـن التوافـق يمكـن أن يكـون؟

«الحيـاة مصـدر الرفاهـة والعمـل الخيّـر: «مـاذا نعنـي بالحيـاة هنـا؟ هـل هـي مجـرّد الوجـود المتحقّـق بقـدرة اللـه، والاحتفـاظ بالبـدن والـروح معـاً؟

الكلـب- أيضـاً- مُنِـحَ هـذا الوجـود. ومـن يثمّـن حيـاة كهـذه، ومـن يـرى أن المـوت هـو الكارثـة بعينهـا، فسـوف يصبـح العـدوّ الدائـم للحيـاة. يفـرّ بحياتـه مـن الخصـم، سـوف يُعـرف بالجبـان: المتهـرِّب مـن الكَـدّ، سـوف يكـون عديـم النفـع، سـوف يكـون عـدوّاً للخيـر.

لا، المثـل يشـير إلـى نـوع آخـر مـن الحيـاة، هـو جعـل الـروح حَيّـة، والعقـل سـليماً. إذا كان بدنـك حيّـاً وروحـك مِيّتـة، فلـن تصلـك

مفـردات الصـواب، لـن تكـون قـادراً علـى كسـب عيشـك مـن عمـل شـريف.

المتسـكِّع والمتملِّـق والطفيلـي وقحـون وصفيقـون، شـجعان فـي مظاهرهـم، جبنـاء فـي قلوبهـم، يخلـون مـن شـعور الخجـل.

إن كنـت مـن هـذا الطـراز، فـلا تتخيَّـل نفسـك فـي عـداد الأحيـاء. موتـك هـو المبـرِّر الأخلاقـي لحالتـك، أكثـر مـن وجـودك.

7

يرث الطفل، عند ولادته، شيئين أساسيين:

الأول، هـو الغـذاء والمـاء والنـوم مـن أجـل النمـو والقـدرة العقليـة والقـدرة الروحيـة، والآخـر هـو التـوق الشـديد إلـى المعرفـة.

الطفـل يـدرك الأشياء من خـلال الألـوان البرّاقـة، يضعهـا فـي فمـه، يتذوّقهـا، يضغـط بهـا علـى خـدّه. سـيبدأ فـي إصـدار الأصـوات مـن حبـال حنجرتـه، ثـم يكبـر قليـلاً، يسـمع نبـاح الـكلاب، ضجيـج الحيوانـات، ضحـك النـاس وبكاءهـم، سـيبدأ فـي طـرح الأسـئلة عـن المشـاهد التـي أثارتـه: «مـا هـذا؟ ولمـاذا؟ لمـاذا يفعـل كـذا وكـذا؟ «هـذه رغبـة طبيعيـة للـروح: أن تأمـل فـي رؤيـة كل شـيء، وسـما ع

كل شـيء، وتعلُّـم كل شـيء.

بـدون المحاولـة لسبر غـور ألغـاز الدنيـا: الظاهـر منهـا والباطـن، دون البحـث عـن تفسـير الأشـياء، لا يمكـن للمـرء أن يكـون إنسـاناً. وإلا فلـن تختلـف الحيـاة الروحيـة للإنسـان عـن أيّ مخلـوق آخـر.

منـذ البـدء، فصـل الله الإنسـان عـن الحيـوان بـأن نفـخ فيـه الـروح. لمـاذا- إذاً- فـي تدرُّجنـا فـي النمـوّ، نكتسـب الحكمـة؟ ألا نبحـث عمّـا يرضـي فضولنـا، الفضـول الـذي نسـيناه فـي الطفولـة، مشـغولين بالغـذاء والنـوم؟ لمـاذا لـم نمـشِ فـي طريـق مَـنْ نَهَـجَ البحـث عـن المعرفـة؟

ينبغـي علينـا أن نناضـل لتوسـيع دائـرة اهتمامنـا، وننمّـي الحكمـة مـن أجـل تغذيـة أرواحنا. يجـب علينـا إدارك الفضيلـة الروحيـة السـامية للجسـد الممنـوح لنـا، وتعلُّـم كيـف نُخضِـع رغباتنـا الدنيويـة إلـى مـا تمليـه عليـه أرواحنـا. لكـن، لا، لقـد كرهنـا ذلـك: نهـذي ونتذمَّـر، لـم نتقـدَّم أبعـد مـن كومـة روث إلـى القريـة المجـاورة، حَكمتنـا الـروح، فقـط، فـي طفولتنـا، وعندمـا نَمَوْنـا وتمكَّنّـا مـن المقـدرة

رفضنـا إملاءاتهـا، وأخضعنـا الـروح للبـدن، وتأمَّلنـا محيطنـا بعيوننـا

لا بعقولنا:

لم نؤمن بدوافع الروح، مكتفين بالإشباع الظاهري، لم نحاول كشف باطن الأسرار. بإيماننا التافه لم نخسر شيئاً بمثل هذا الجهل. نقول لمن يقدِّم لنا النصيحة والمشورة: «أنت تعيش بعقلك، وعقلي جيّد لي، بما فيه الكفاية»، أو «نفضّل أن نكون فقراء بعقولنا على أن نكون أغنياء بعقول غيرنا». نحن عاجزون عن إدراك التفوُّق والترفُّع في معنى كلماتهم.

لا تخفق شعلة نار في صدورنا، ولا أيّ إيمان في أرواحنا. فبماذا نختلف عن الحيوانات- إذاً- إن كنا ندرك محيطنا من خلال عيوننا فقط؟ يبدو أننا كنّا أفضل في طفولتنا، كنّا بشراً حينها، لكننا، اليوم، أسوأ من الوحوش. الحيوان لا يعرف شيئاً، وليس له هدف في الحياة.

نحن لا نعرف شيئاً، لكننا نجادل حتى تبحّ أصواتنا.

في دفاعنا عن بَلادَتنا، نحاول تمرير الجهل كنوع من المعرفة.

8

هل ثمّة من يلتفت إلى نصيحتنا، ويسمع مشورتنا؟

ربّما يكون المرء حاكماً أو قاضياً. إن كان هؤلاء لديهم أدنى رغبة ليكونوا حكماء، وليتعلّموا الأحاسيس؛ هل كانوا ليبحثوا عن المناصب والوظائف؟ هؤلاء يعدّون أنفسهم أذكياء بما فيه الكفاية، ويبحثون عن السلطة ليكونوا معلِّمين وموجِّهين للآخرين؛ كما لو أنهم حقّقوا الكمال، وليس لديهم ما يفعلونه أكثر من أن يعلِّموا الناس.

هل هم من النوع الذي لديه الرغبة، أو فائضاً من الوقت لسماعنا؟

عقولهم مملوءة باهتمامات أخرى: لا يزعجون أنفسهم، لا يثيرون غضب اللصوص، لن يكونوا سبباً في التشويش بين الناس، لن ينزلوا إلى الخسارة، غير أنهم يحقِّقون مصالح شخصية، إلى

ذلـك، يجب عليهـم مسـاعدة شـخص مـا دائمـاً، أن يسـاعدوا شـخصاً مـا للخـروج مـن مشـكلة؛ إنهـم دائمـاً مشـغولون.....

أهــو الغنــى؟ هــم أثريــاء، يفكِّــرون فــي يومهــم، يعتقــدون أنهــم بثروتهـم يملكـون نصـف العالـم تقريبـاً، يسـتطيعون شـراء أيّـة ثـروة حيوانيــة تنقصهــم، رؤيتهــم عاليــة، وطموحهــم أعلــى، الشــرف والضميـر والصـدق ليسـت أعـزّ مـن قطعـان الـدواب لديهـم. متأكِّـدون مـن أنهـم، بامتلاكهـم قطعـان الـدواب، بإمكانهـم أن يرشـوا العلـيّ الكبيــر. قطعانهــم هــي كل شــيء بالنســبة إليهــم، وليــس الوطــن والأرض والنــاس والديــن والأســرة والتعليــم. لمــاذا- إذاً- يصغــون إلـى نصيحـة النـاس؟ بعضهـم- ربّمـا- يميلـون إلـى إعـارة سـمعهم؛ لكـن، ليـس لديهـم وقـت لذلـك: يجـب عليهـم توفيـر العلـف والمـاء لقطعانهــم، وبيعهــا فــي الوقــت المناســب، حمايتهــا مــن اللصــوص والذئــاب، وقايتهــا مــن البــرد، والبحــث عــن الشــخص المناســب للقيــام بهــده الأعمــال، بمقابــل.

لا، هــذا الشــخص مشــغول جــدّاً عــن أن يســمع نصيحــة أو مشــورة. عندمـا يـرى كل هـذا سـيتباهى ويتفاخـر؛ لذلـك ليـس لديـه وقـت لأيّ شـيء آخـر؛ كمـا اللصـوص والأوغـاد، مـن الواضـح أنهـم لا يريـدون السـماع علـى أيّـة حـال. الفقـراء خنوعـون كمـا الخـراف، اهتمامهـم ينحصـر فـي خبزهـم اليومـي. مـا نفـع النصيحـة والمشـورة والتعليـم

عندهم إذا كان الأغنياء منصرفين عنها؟

«دعنا وشأننا، كَلِّمْ مَنْ هم أكثر ذكاءً منّا» يقولون، معتقدين أن المعرفة لا تجدي مع أناس فقراء، لا يعيرون اهتماماً لأحد. إن تحصَّل الفقراء على صنو ما عند الآخرين، فلن يعرفوا القلق.

9

أنا- أيضاً- كازاخي، لكن، هل أحبّ الكازاخ، أم لا؟

إن نعـم، فسـوف أستحسـن نمـط حياتهـم، وسـوف أبحـث عـن أي شـيء، مهمـا كان تافهـاً، فـي سـلوكهم، ليبهجنـي أو يواسـيني، عـن سـبب يُكبـر فـي عينـي- علـى الأقـلّ- بعضـاً مـن سـجاياهم، ويبقـي بصيـص الأمـل حيّـاً. وإن لا فهـل أكـف عـن حبهـم، عـن الـكلام معهـم مـن قلبـي، أو أتبـادل المشـورة معهـم، أن أتوقَّـف عـن الاختـلاط بهـم وأشـاركهم شـؤونهم، أتسـاءل:«ماذا يفعـل النـاس؟ مـاذا يجـري؟ «سـأتراجع وأصمـت فـي هـدوء، أو أُدهَـش».

لست آمل في تصحيح مسارهم أو جلبهم للجدال ومحاولة إقناعهم أو إصلاحهم. حتى هذه العاطفة لا أشعر بها. لكن، كيف ذلك؟ يجب أن أختار.

لا أعـدّ نفسـي حيّـاً، لا أعـرف لمـاذا: ربمـا لأنني مغتـاظ مـن قِبَـل

شعبي، أو مستاءٌ من نفسي، أو لسبب آخر. ظاهرياً، أنا حَيّ، لكني، داخلياً، مَيّت تماماً.

ما الحال الذي عليه أنا؟ ظاهرياً، أنا سريع الغضب، ولا أشعر بغضب! أضحك، وغير قادر على الابتهاج. الكلمات التي أتفوّه بها، والضحك الذي أطلقه، يبدو أنهما ليسا لي! كلّ شيء غريب! في سنوات شبابي لم يخطر في بالي أن ينبذ أيّ شخص ناسه. أحببت الكازاخ من كلّ قلبي، ووثقت بهم. لكن، عندما أردت فهمهم، بشكل أفضل، تلاشى كل أمل لديّ: اكتشفت أنني أفتقر المقدرة على مغادرة موطني وتشكيل قرابة ونسب مع غرباء؛ لهذا السبب ثمّة فراغ في قلبي الآن، لكن، ربّما يكون للأفضل! هذا ما دار في خلدي.

عندما أُحتَضَر، لن أرثي: «واحسرتاه، لم أجرِّب هذا أو ذاك من المُتع...».

لن أعذِّب نفسي بالندم على متاع الدنيا، سوف أجد عزائي في الحياة الآخرة.

10

يتضـرّع النـاس إلـى اللـه كـي يرزقهـم أطفـالاً، مـا حاجـة المـرء إلـى طفـل؟

يقولـون: ذلـك حتـى يكـون الطفـل وريثـاً، ويعتنـي بهـم فـي شـيخوختهم، ويصلّـي مـن أجلهـم بعـد موتهـم، أهـذا كل شـيء؟

حتـى يكـون وريثـاً.. مـاذا يعنـي هـذا؟ هـل تخشـى علـى ممتلكاتـك مـن الضيـاع؟ ولكـن، لمـاذا يؤرِّقـك شـيء سـوف تخلّفـه وراءك؟

مـا الـذي سـتتركه للنـاس وأنـت آسـف عليـه؟ مـا الكنـوز التـي كسـبتها، وتتحسَّـر عليهـا بهـذا القـدر؟

الطفـل الجيّـد بهجـة، لكـن الطفـل السـيّئ مسـؤولية مرهقـة..مـا أدراك كيـف سـيكون الطفـل الـذي يرزقـك اللـه إيّـاه؟ ألا يكفيـك الإذلال الـذي ابتلعتـه طـوال حياتـك؟ أو بعـض الآثـام التـي ارتكبتهـا؟ لمـاذا

أنـت متلهِّـف لطفـل؟ لِتُرَبّيـه علـى الدنـاءة والإسـاءة، وتميتـه فـي الإذلال نفسـه الـذي ذقتـه؟

تريـد أن يصلّـي ابنـك مـن أجلـك بعـد موتـك.. لكـن، إن صنعـت الخيـر فـي حياتـك، أتـدري مـا الـذي تضيفـه الصلوات إلـى سـكينة روحـك؟

إذا كنت شرّيراً في حياتك، ما فائدة صلاة ابنك؟

هل سيؤدِّي لك صنيعاً جيِّداً عن الذي فشلت فيه سابقاً؟

إن اسـتعطيت مـن أجـل طفـل، لأفـراح الآخـرة؛ هـذا يعنـي أنـك تتمنّـى لـه موتـاً مبكـراً! لكـن، إن أردتـه أمانـاً لـك، لمباهـج حياتـك، فأيـن رأيـت كازاخيـاً يلـد ابنـاً يحنـو علـى أبويـه عندمـا ينمـو ويكبـر، ويحميهمـا مـن الآلام؟: أنـاس كهـؤلاء، وأب مثلـك: هـل ابـن كهـذا مسـتحَقّ؟

تريـد منـه أن يطعمـك ويكسـوَك فـي شـيخوختك؟ أيضـاً، هـذا أمـل بـلا قيمـة!:

أولاً، هـل سـتعيش حتـى مرحلـة الخـرف؟ ثانيـاً، هـل سـيكون ابنـك رحيمـاً كـي يعتنـي بـك فـي شـيخوختك؟ إن كان لديـك قطيـع مـن الماشـية، فسـتجد، دائمـاً، مَـنْ يعتنـي بـك، وإن لـم يكـن، فمـن

يقـوم عليـك؟ وكيـف؟ أضـف إلـى ذلـك: مـا أدراك إن كان ابنـك سيضاعف ثروتـك التـي كسبتها بشـقائك وتعبـك، أم أنـه سيبدّدها؟

حسـناً، لنفـرض أن اللـه اسـتجاب لـك، ومنحـك طفلاً،هـل سـتعلِّمه تعليمـاً جيّـداً؟ لـن تفعـل، سـوف تضاعـف ذنوبـك بذنـوب ابنـك، منـذ مطلـع حياتـه المبكّـرة، سـوف تقـول لـه أكاذيـب، تعـده بهـذا الآن، وذاك فيمـا بعـد، وسـوف تُسَـرّ بخداعـك إيّـاه، عندهـا، مـن هـو الملـوم؟ عندهـا، يصبـح ابنـك كذّابـاً.

سـوف تعلِّمـه لغـة رديئـة وسيشـتم النـاس، وسـتتغاضى عـن آثامـه: «لا تلمسـوا هـذا الولـد العنيـد»!، تسـتحثّ صفاقتـه.

بخصـوص تعليمـه، تختـار لـه (مُـلّا) تدفـع لـه القليـل، ليعلِّمـه القـراءة والكتابـة، فحسـب، وأنـت تعلِّمـه كيـف يكـون مخادعـاً وماكـراً، هـل هـذه هـي التربيـة، ثـم تتوقّـع الرحمـة مـن ابـن كهـذا؟

فـي السـياق نفسـه، يتضـرّع النـاس إلـى اللـه مـن أجـل الثـروة، لمـاذا يحتـاج المـرء إلـى الثـروة؟ أأنـت سـألت اللـه؟ نعـم، أنـت سـألته، وهـو اسـتجاب، غيـر أنـك لـم تكسـب!! منحـك الموهبـة للعمـل ونجحـت، لكـن، هـل اسـتثمرت عملـك فـي الخيـر؟ لا، اللـه منحـك القـوّة كـي تتعلَّـم. العقـل قـادر علـى تمييـز المعرفـة، لكـن، مـن يـدري فـي أي شـيء وظّفتهـا! الـذي يعمـل بجـدّ يسـتفيد مـن فشـله عبـر المثابـرة،

دون كلل، لاستعادة توازنه، لكن، أنت لست بحاجة إلى ذلك! أنت تسأل الله كي تصبح غنيّاً، ومن الخوف الذي في داخلك تغشّ الناس وتستعطي، ما هذا التضرُّع؟ ما هذه الصلاة؟ إنهما، ببساطة، النهب والفقر في ذلك الجزء من الإنسان الذي فَقَد ضميره وكبرياءه، لنفترض أنك اخترت هذا الطريق، وامتلكت قطيعاً من الماشية، حسناً، ألا وظّفته في التعليم؟ إن لم يكن لأجلك، فمن أجل ابنك؛ بدون تعليم، لا الصلوات ولا الصوم ولا الحج، مَرّةً بعد أخرى، تحقِّق ما تصبو إليه.

لم أرَ شخصاً، حتى الآن، تحصَّل على ثروة بدون غش، بأيّ معنى من المعاني، وسخّرها تسخيّراً حسناً.

الكسب الحرام مثل المرض المرهق، تماماً.

لا شيء يعذّب الروح ويحبطها كالاحتفاظ بمثل هذه الثروة، بمجرّد حصوله على الثروة، سيزهو المرء ويتبختر، ليأتي عليها تبديداً، ثم يفخر بثرائه السابق، بعد ذلك، يستعطي، وهو مطاطىء الرأس!.

11

كيف يعيش شعبنا؟ ثمّة طريقان: الأوّل عن طريق السرقة؛ يأمل اللص بأن يثري بما سرق، و«البيّ» يبحث في كيف يزيد من قطعان دوابه، بأن يستردّ ما سُرق منه، إلى جانب أشياء أخرى. الذين في السلطة سوف يسلبون الاثنين، «البيّ» واللص: بوعدهم للأوّل بالمساعدة لحماية قطعانه، وللثاني بالتملّص من العدالة. أنت، الرجل العادي، سوف تُبلِّغ السلطات عن اللص، وفي الوقت نفسه تساعده وتحرّضه على بيع المسروق بثمن بخس.

والطريق الآخر: الناس العاديون يقنعون بالخداع، باللجوء إلى الحيلة بصيغة أخرى، ليس لديهم حلم. افعل هذا وذاك، وسوف تكون غنياً ومشهوراً، سوف تكون محترماً، ويتعذّر إيذاؤك، وسوف يهابك خصومك. انشر الشرّ، والغضب الشديد، واضرب الناس، بعضهم ببعض، بأمل الغشّ والخداع تكون في خدمة

شخص ما لتكسب، وتنتفع من ورائه.

هذه طريقة حياتهم: النبالة في مساعدة «البيّ»، وتعرية اللّص، والرجل الفقير يقوم بتملُّق الأقوياء وتوريطهم في النزاعات، يقف الآن مع شخص، وغداً مع زمرة أخرى، ويبيع، بسعر، هو الأرخص، شرفه وزوجته وأطفاله وأقاربه وجيرانه وأصدقاءه.

إن انتفى اللصوص والاحتيال سوف يفكِّر شعبنا بشكل جيّد، سوف يكونون سعداء بالعمل الشريف والبحث عن الخير والحكمة إن كان «البيّ» يريد أن يعملوا في أملاكه، وسيجني الفقير، ويكسب رزقه دون فقدانه الأمل أو الإيمان.

عموم الناس يتورّطون في أعمال قذرة، بسبب احتقار بعضهم للبعض الآخر، القوي الذي يجتثّ هذا الشر، سوف يكون له الشرف والنخب ونقاء الضمير والتمتُّع بالسلوان!

ربّما تكون القوّة قادرة على ترويض اللّص، لكن: ماذا عن «البيّ» الذي يتآمر مع الطمّاع والمخادع والنهّاب؟ من يجعله في طريق الصواب؟ وكيف؟

12

عندما يعلِّم أحد ما كلمات الله، بغض النظر عمّا إذا كان ذلك بطريقة حسنة أم لا، سرعان ما نلذعه بألسنتنا محرّمين عليه عظته، دون أن نفسِّر لماذا نوبِّخه، ربّما يفتقر إلى التنوير الكافي! لكن، دعه يعظ. على كلٍ، يجب على هذا الشخص أن يتذكَّر شرطين أساسيين: الأول: يجب أن يكون متيقّناً من إيمانه، والثاني: يجب عليه ألّا يرضى بما يعرف، بل عليه أن يحسّن عقله باستمرار. الذي يهجر التعليم يحرم نفسه من بركة الله، سوف تبحث عن أية فائدة عقيمة من تعليمه. في الحقيقة: ما فائدة وضعه العمامة على رأسه، وصومه بصرامة، وتظاهره بأنه يؤدّي صلواته بتقوى؟ لكنك لا تعرف إن كانت صلاته في المكان الصحيح أم لا.

الشخص المتهاون، الذي لا يكون صارماً في حياته، ولا يبادر إلى الحنوّ والشفقة، لا يُعَدّ مؤمناً؛ فدون ضبط الذات والاستقامة، لا يمكن للمرء أن يحتفظ بالإيمان في روحه.

13

الإيمان، الإيمان الذي لا يتزعزع في قلب المرء. كلّ قدرة الله تعالى، في جوهر الوجود، أن نتعلّم من الوحي الذي نزل على رسوله، عليه الصلاة والسلام.

ثمّة طريقان للإيمان: البعض يكون مسلماً، هكذا، ببساطة، مدركاً الاحتياج الحيوي للحقيقة، ويقوّي إيمانه من خلال الحجج الصائبة. نسمّي هذا (الإيمان اليقيني). وآخرون، يؤمنون من خلال تكوين الحكمة من الكتب ومن كلمات (الملّا). مثل هؤلاء الناس يحتاجون إلى تكريس خاصّ لهدفهم، وهو الإيمان والقوّة الروحية من أجل الصمود أمام آلاف الإغواءات. ولا يرتعش أبداً في مواجهة الموت؛ هذا هو (الإيمان التقليدي).

للحفاظ على الإيمان في عمق الذات، يجب على المرء أن يتحلّى بقلب جريء، راسخ، ووطيد الثقة في قدراته.

ولكــن، مــاذا عــن أولئــك الذيــن يفتقــرون إلــى المعرفــة ليكونــوا فــي ركــب الإيمــان اليقينــي، أو أولئــك الذيــن ليــس لديهــم الإيمــان الراسـخ، الذيـن يستسـلمون، بسـهولة، للإغـواءات ويتملّقـون، الذيـن، مـن أجـل كسـب رخيـص، يقولـون: الأسـود أبيـض، والأبيـض أسـود، الذيـن يحنثـون فـي قسَـمَهم؛ لتمريـر الأكاذيـب علـى أنهـا حقيقـة؟ ألا يمكـن حسـبانهم مؤمنيـن تقليدييـن؟ ليحفظنـا اللـه مـن مثـل هـؤلاء! يجـب علـى كلٍّ منّـا أن يتذكَّـر أنـه ليـس ثمّـة إيمـان أخـر يحفظنـا. لنـدع المرتدّيـن فـي حـال مَـنْ لا يحصـي نعمـة اللـه المطلقـة: لا يسـتحقّون مغفـرة اللـه، ولا شـفاعة رسـوله. ملعـون مـن يصـدق أمثلـة كاذبـة، مثـل: «حافّـة السـيف أحـدّ مـن القسَـم»، و«يغفـر اللـه كلّ الخطايـا».

14

هل يملك المرء عزيزاً أكثر من قلبه؟ الناس تُعزّ من يُنعَت بأنه يملك قلباً شهماً، وتحترمه، لكن الناس لديهم فكرة سيّئة عن مناقب أخرى لفؤاد الإنسان: الرحمة، والعطف، والقدرة على معاملة الغريب كأخ عزيز، والتمنّي له ما يتمنّاه المرء لنفسه، كل هذا يأتي بإيعاز من القلب، وبالمثل، يأتي الحبّ من القلب.

اللسان الذي يطيع القلب لا يكذب.المنافق- فقط- ينسى قلبه، مع ذلك فإن هؤلاء «أصحاب القلوب الشهمة»، غالباً، يثبتون أنهم غير جديرين بهذا الإطراء، ما لم يكرّسوا شرفهم وكياستهم في النفور من الشرّ، لقيادة الأرواح التائهة، عبر طريق طويل وضيِّق، وليس في اتّباع الحشود الخسيسة والبائسة، وما لم يقفوا للدفاع عن قضية عادلة في وجه الصعوبات ومساندة الحقيقة، طالما بمقدورهم ذلك؛ عندئذ، ستكون القلوب التي في صدورهم، والتي من أجلها يُقدَّم لهم الاحترام، قلوبَ ذئاب،

وليســت قلـوب بشـر.

فــي الواقـع، الـكازاخ، هـم- أيضـاً- أطفـال الإنسـانية. العديـد مـن الـكازاخ يضلّوه طريـق الحـقّ. ليـس بسـبب عجـز العقـل، بـل لضعف فــي العزيمــة، وتعطيــل القلــب عــن قبــول النصيحــة والمشــورة. لا أصـدّق مـن يزعـم بأنـه اضطـرّ لعمـل الشـرّ بسـبب الجهـل.لا، عنـده مـا يكفـي مـن المعرفـة، لكـن ضعـف الإرادة المخـزي لعمـل الخيـر، والكسـل همـا السـبب فـي التجاهـل. قـد نخطـئ مَـرّةً، لكـن القليليـن منـا مـن يملكـون الشـجاعة الكافيـة لتصحيـح خطئهـم. هـؤلاء الذيـن نثنـي عليهـم، بوصفهـم شـجعان وفـوارس، أذكيـاء وبواسـل، غالبـاً مـا يضـع أحدهـم الآخـر فـي عمـل خسـيس، ونتيجـة للتقليـد الأعمـى، مـن قِبَـل بعضهـم للبعـض الآخـر، يسـبّبون المحـن، ثـم يثبـون مرحـاً.

إذا انغمـس المـرء فـي الشـرّ، وأطلـق العنـان للتبجُّـح فلـن يتوقّـف ليراجـع نفسـه ويهذّبهـا، ولـن يحـاول تطهيرهـا أمـام اللـه أو أمـام ضميـره. كيـف ننعـت هـذا الإنسـان بـ(البَطَـل) إذا لـم يتسـاءل المـرء إن كان سـيُدعى إنسـاناً؟.

15

في رأيي، ثمّة فرق جوهري بين الذكيّ والغبيّ.

في هذه الحياة، لا يمكن للمرء أن يتجاهل ما يجذبه من حوله ويثيره، ويفتنه. تلك الأيام من التساؤلات، والعواطف، والاهتمامات، تبقى في ذاكرة المرء بمثابة المرحلة المضيئة من حياته.

الإنسان الواعي يهتمّ بالمسائل الجديرة بالجدّيّة، يلاحق أهدافه بثبات، وأيضاً، ذاكرته عن ماضيه، المفعمة بالنضال، سوف تكون مُستمعاً إليها من الآخرين، بكل الدفء.

مثل هذا الشخص لن يضلّ، وأيضاً، لن يأسف على حياته، على امتدادها.

الإنسان التافه ينفق وقته في اللاجدوى، ويشرع في السخف

والضآلة. عندما يعود إلى رشده يدرك أن أفضل سنوات عمره ذهبت، سريعاً، هباءً منثوراً، وهنا يكون الندم متأخّراً. في أيام شبابه يتصرف وكأنه لن يشيخ، ولا يشكّ، أبداً، في أن أيام البهجة والافتتان، سوف يأتيه يوم، لا يجد منها لحظة. بعدها، وفي لحظة قريبة حاسمة، يخسر قوّته السابقة ورشاقته، ويصبح عديم النفع لأيّ شيء.

ومع آخرين، يكمن الإغواء عندهم في التحمُّس الروحي، معتقدين أن النجاح تحقَّق، أو هو بين أيديهم، هذا الأمر يُسْكر حواسهم، ويجعل منهم حمقى. بمثل هذه النجاحات تلبِّد الغيوم عقولهم، وتورّطهم في التخبُّط وارتكاب الأخطاء. إنسان مثل هذا يجذب الانتباه، حتى ولو كان ذلك ضدّ إرادته، يصبح موضوعاً للقيل والقال، وهدفاً للسخرية.

الناس العقلاء يحتفظون بتوازنهم، حتى في اللحظات الحرجة لن يفقدوا رشدهم، بل يتحلّون بضبط النفس، ولا يكشفون مشاعرهم للآخرين.

الأحمق مثل فارس، يعدو ممتطياً جواداً من دون لجام: يرفع عينه إلى السماء كما لو كان مجنوناً، ليخسر السباق في نوبة الحمّى هذه، يجمح، ولا يدري أن حافّة عباءته لا تغطّي مؤخِّرة الجواد حتى... هذا ما لاحظته.

إذا أردت أن تكـون فـي عـداد الأذكيـاء الفَطِنيـن، اسـأل نفسـك، مَـرّةً فـي اليـوم، مَـرّةً فـي الأسـبوع، أو- علـى الأقـلّ- مَـرّةً فـي الشـهر: «كيـف أعيـش؟ هـل طبّقـتُ مـا تعلّمتـه مـن أجـل حياتـي أو ليـوم حسـابي؟ هـل سـأبتلع تفـل المـرارة، بـكل أسـف، فـي وقـت لاحـق؟».

أو- ربّما- لا تعرف، أو تتذكَّر كيف عشت، ولماذا!.

16

الكازاخـي لا يهتـمّ إن كانـت صلاتـه ترضـي اللـه أم لا! إنـه يفعـل ما يفعلـه الآخـرون: يقـف، ويركـع، ويسـجد فـي تضـرُّع. إنـه يعامـل اللـه كمـا لـو كان التاجـرَ الـذي جـاء لتحصيـل الديـون: «هـذا كلّ مـا لديّ،خـذه إن شـئت، وإن لـم تشـأ لا تسـألني عـن قطيـع المواشـي، ومـن أيـن أتـى». الكازاخـي لـن يجهـد نفسـه فـي عنـاء المعرفـة، تطهيـر عقيدتـه وإيمانـه: «حسـناً، هـذا كل مـا أعرفـه، لـم ينصحنـي أحـد طـوال عمـري، لذلـك، يكفـي النـاس لومـاً لـي عـن تركـي للصـلاة. إن كان كلامـي أخـرق، فهـذا لا يهـمّ، علـى أيّـة حـال».

أتساءل: هل يختلف هذا اللسان عن الآخرين؟

17

تجادل، ذات مَرّة، العقل والإرادة والقلب،عن أيّهم أكثر أهمّيّة، فطلبوا من المعرفة حسم الخلاف بينهم. قالت الإرادة: «أيّتها المعرفة، يجب أن تعرفي أنه ليس ثمّة شيء يحقّق الكمال من دوني. كي يعرف الإنسان نفسه، عليه أن يواظب على التعليم، وهذا مستحيل من دوني، بمساعدتي- فقط- يمكن للمرء أن يخدم العليّ الكبير دون كلل، ويكسب الثروة والمهارة والاحترام والمهنة الناجحة:

ألست أنا من يحمي الناس من الهوى التافه، ويكبح جماحهم؟

ألست أنا من يحذِّرهم من الخطيئة ومن الحسد ومن الإغواء؟

ألست أنا من يردّهم عن غيّهم، في اللحظة الأخيرة، عندما يكونون على شفا الهاوية؟ كيف لهذين أن يتجادلا معي؟

قـال العقـل: «أنـا- فقـط- مـن يعـرف كُنـه الكلمـات: مـا يفيـد منهـا، ومـا يؤلـم، سـواء فـي هـذه الحيـاة أو فـي الحيـاة الأخـرى.

أنـا مـن يفهـم لسـانك، مـن دونـي لا أحـد يقـدر علـى تجنُّـب الشـرّ، وأن يكسـب المعرفـة، أو يفيـد نفسـه. لمـاذا يجادلنـي هـؤلاء؟ مـن دونـي ليـس لهمـا شـأن».

قـال القلـب: «أنـا سـيِّد بـدن الإنسـان. أنـا مصـدر دمـه، والـروح تكمـن عنـدي. لا يمكـن تخيُّـل الحيـاة مـن دونـي. أنـا مـن يحـرم هـؤلاء المضِّجعيـن علـى الأسِـرّة الوثيـرة النـوم، أنـا مَـنْ يجعلهـم يتقلّبـون، وهـم يفكـرون بالمحروميـن مـن سـقف يحميهـم، وهـم جوعـى وبـردى. أنـا مـن يدعـو الصغيـر لاحتـرام الكبيـر، ويتسـامح مـع مـن هـو أصغـر منـه. لكـن النـاس لا يسـعون لإبقائـي طاهـراً، لذلـك تراهـم يقاسـون ويعانـون. عندمـا أكـون نقيّـاً لا أميّـز بيـن النـاس. أُكبـر الفضيلـة، وأثـور ضـدّ الحقـد والعنـف.

احتـرام الـذات، والضميـر، والرحمـة، والعطـف، كل هـذا ينبـع منـي. مـا قيمـة هذيـن مـن دونـي؟ كيـف يجـرؤا علـى مجادلتـي؟

بعد الاستماع إلى كلٍّ من الثلاثة، أجابت المعرفة:

«مـا قلتِـه، أيّتهـا الإرادة، صحيـح، ولديـك مزايـا أخـرى لـم تذكريهـا. لا يمكــن إنجـاز شــيء دون مشــاركتك، مـع ذلــك، أنــت تخفيــن

وحشـيةً تعـادل قوّتـك. أنـت عازمـة علـى خدمـة الخيـر، ولكنـك- بالعـزم نفسـه- تخدميـن الشـرّ. هـذا هـو خطـؤك.

«وأنـت- أيضـاً- علـى حـقّ، أيّهـا العقـل، لا يمكـن للمـرء القيـام بشـيء مـن دونـك. بفضلـك، عـرف النـاس الخالـق، وانخرطـوا فـي أسـرار الدنيـا والآخـرة. لكـن هـذه ليسـت كلّ حـدودك. المكـر والشـر يأتيـان -أيضـاً- منـك. الجيّـدون مـن النـاس وأردؤهـم، وجودهـم يعتمـد عليـك، وأنـت تخـدم الطرفيـن، بالحـرص نفسـه.

إذاً، خطيئتك تكمن هنا.

«مهمّتي التوفيق بينكما، حبّذا لو كان القلب وسيطاً:

أمامـك مسـارات عديـدة، أيّهـا العقـل، لكـن القلـب لا يمكنـه سـلوكها جميعـاً. سـيبتهج إن باشـرت مهامـك الأخلاقيـة بيـن النـاس، وسيُسَـرّ بمسـاعدتك فـي عملـك، لكنـه لـن يتبعـك إن حِكْـتَ المكائـد وفعـلَ الشـر، سـوف يدبـر عنـك مشـمئزّاً».

«أنـت، أيّتهـا الإرادة، لديـك وفـرة مـن الطاقـة والشـجاعة، لكنـك مقيَّـدة بالقلـب. لـن يقـف فـي طريقـك لأعمـال النيـة الحسـنة، لكنـه سـوف يقيّـد يـدك وقدمـك، إن كان هدفـك الضعـف والشـرّ.

«يجب التكاتف مع القلب، وإطاعته في كلّ شيء!».

إذا كنتما - أنتما الاثنان- تعيشان بسلام، داخل المرء، فإن غبار قدميه سيفتح أعين العميان، وإن لم تصلا إلى اتّفاق، فإنني أعطي الأفضلية للقلب؛ لأنه هديّة الإنسانية قبل كلّ شيء، ومنه يحكم علينا العليّ القدير. إنه مدوَّن هنا في الكتاب». هذا ما قالته المعرفة.

18

يجب على المرء أن يكون محتشماً في لباسه، وأن يكون نظيفاً وأنيقاً. فقط، شديدو التأنُّق يهتمّون أكثر من غيرهم بزيّهم وبمظهرهم. إنهم يتباهون بطرق عديدة، منهم من يولي اهتماماً كبيراً بوجهه، يصقل شاربه ولحيته، يدلّل بدنه، ويمشي مختالاً، يرفع حاجبه في تراخٍ، ينقر بأصابعه، أو يستعرض ملابسه واضعاً يديه على خاصرتيه وثمة آخر يتعمّد إهمال أناقته، ويوحي- بشكل مرتجل- بأنه «رجل بسيط»، ليلمّح إلى حصانه العربي أو إلى ثيابه غالية الثمن: «آه، ليس ثمّة شيء على وجه الخصوص !». إنه يلفت النظر إلى حسن سلوكه، مثيراً الحسد بين أقرانه، طالباً الإجلال ممّن أدنى منه، كما لو أنه في قمّة نقائه وترفه، حتى يقال عنه: «ليس لديه ما يشكو منه، وهو الذي يملك جواداً وملابس مثل هذه !»، لكنّ هذا أمر سخيف ومخزٍ.

يجب على المرء أن لا يتّصف بهذا الهراء، وإلا سيجد صعوبة في

عودتـه إلى رشـده.

فـي المفـردة «كيربـز» (شـديد التأنـق)، نـرى العلاقـة بيـن المفردتين: كيـر (مغـرور)، وكيـردن (متغطـرس)؛ هنـا، ثمّـة شـيء يجـب تحذيـر النـاس منـه، إنـه المعـادل للرذيلـة، فـي صنوفهـا:

علـى المـرء أن يتميَّـز بالعقـل، والمعرفـة، والعزيمـة، والضميـر، والخلـق.

فقط، الأحمق هو مَنْ يظنّ أنه يمكنه التميُّز بمعانٍ أخرى.

19

لا يولد الطفل وهو خالٍ من العقل. بالاستماع والمشاهدة وبتفحُّص الأشياء عن طريق اللمس والتذوق، يتعلّم ما هو الجيّد، وما هو السيّئ.كلّما شاهد وسمع،عرف. يمكن للمرء أن يتعلَّم الصفة الجيِّدة من خلال الاستماع إلى الحكماء. هبة العقل ليست كافية. بالتعليم وحده، وبالحفظ- عن ظهر قلب- كيفية تجنُّب الرذائل، يمكن للمرء أن ينمو في صيغة إنسان.

لكن، إن استمع المرء إلى الحكمة بتعصُّب مفرط، أو- على العكس- باهتمام قليل، دون أن يسأل عن توضيح، في محاولة للوصول إلى قلب الموضوع أو لاستخلاص استنتاجات، حتى ولو كان يشعر بالحكمة والعدالة في مثل هذه النصائح، فما فائدة هذا الاستماع؟

ما جدوى الحديث مع شخص لا يعرف قيمة الكلمة؟ أو، كما قال أحد الحكماء: «من الأفضل ضرب الخنزير بشدّة كي يلاحظك».

20

جميعنا يعرف أنه ليس لأحد أن يفرض القضاء والقدر. الشعور بالشبع صفة إنسانية، لا تأتي باختيار المرء، وإنما بالقضاء والقدر فقط.

من خَبِر الشبع لا يقدر التخلّي عنه، حتى لو بذلت قصارى جهدك، سيكون مصدر اهتمامك ونصب عينيك. ليس ثمّة هذا القليل أو هذا الكثير ليشبع المرء من الطعام واللهو والأزياء والولائم والحفلات والرغبة في ابتزاز الرجال والنساء. عاجلاً أم آجلاً، تكتشف تفاهة كل تلك المباهج وفسادها، حينها يصبح المرء متحرِّراً من الوهم وغير مبالٍ. مثل كلّ شيء آخر في الدنيا، حياة المرء وقدره في تغيُّر، ليس ثمة كائن على وجه الأرض يظلّ ساكناً، لذا: من أين يأتي شعور الاستقرار؟

الشبع هو نوع من القدر، حتى لأولئك الناس الباحثين عن

الكمال في الحياة، الذين يعرفون قيمة الأشياء، الذين هم شديدو الحساسية، ويدركون تفاهة الوجود الإنساني.

من يدرك الطبيعة الزائلة لمتاع الدنيا، يسأم الحياة.

بالنسبة إليّ، أعتقد أن السعيد هو الساذج وخَلِيُّ البال.

21

من الصعب تجنُّب الغرور والرضا الذاتي، ولو بدرجة صغيرة.

لقد حددت صفتين: الفخر، والتباهي.

الرجل الفخور له تقدير عالٍ في قيمته، إنه يبذل قصارى جهده لضمان عدم اعتباره بمثابة الجهول الذي لا يمكن الاعتماد عليه في وعوده، أو المتعجرف الوقح والكاذب الحاقد والعيّاب والمحتال. وهو على بَيِّنة من انحطاط هذه الرذائل، وطموحه أن يكون فوق تلك المشائن.

هذه الصفات هي التي يتميَّز بها الرجل ذو الضمير الصافي. صائب الفكر، سامي المبادئ. إنه يبغض سماع الناس تتغنّى بإطرائه، بيد أنه لا يسمح لأحد بأن يلطِّخ سمعته.

من جهة أخرى، المتبجِّح يبذل قصارى جهده في الحديث عن

كل شـيء، ومتـى مـا سـنحت الفرصـة، ليوحـي للجميـع أنـه بطـل، وغنـي، ومـن سلالة نبيلـة! لكـن، يفوتـه الانتبـاه إلـى أن النـاس تقـول عنـه أشـياء أخـرى، لا يرغـب فـي سـماعها. لكـن، للحقيقـة، رداءة السـمعة لا تضايقـه. ثمـة ثلاثـة أنمـاط للمتبجِّـح:

الأول هـو التـوّاق للشـهرة، فـي الخـارج، بيـن الغربـاء. وهـذا إنسـان جهـول، لكنـه يحتفـظ بفضيلـة إنسـانية.

الثانـي، هـو الـذي يريـد الشـهرة داخـل قبيلتـه. وهـذا النـوع جهـول تمامـاً، وتنـدر فيـه الإنسـانية.

الثالـث، هـو الـذي يسـعى للفـت الأنظـار فـي أسـرته أو فـي مسـقط رأسـه، لأنـه ليـس ثمـة دخيـل يأبـه بتفاخـره. هـذا النـوع هـو الأكثـر جهـلاً، ولا يحمـل صفـات الإنسـان.

الـذي يناضـل مـن أجـل الثنـاء مـن قِبَـل الغربـاء يسـعى إلى تمييز نفسـه بيـن أبنـاء قبيلتـه. والـذي يرغـب فـي الإشـادة بـه مـن قبيلتـه يسـعى للاستحسـان مـن أقاربـه وأعزائـه. والـذي يحصـل علـى الثنـاء مـن عائلتـه هـو علـى يقيـن بـأن هـذا الإطـراء سيحلق بـه فـي السـماوات.

22

أتساءل: من يمكنني أن أحبّ، أو أحترم، من كازاخ اليوم؟

أودّ احتـرام «البـيّ»، لكـن، ليـس ثمـة «بيـات» حقيقيـون، هـذه الأيـام، حتـى لـو وُجِـد أحـد، فهـو ليـس سـيِّد نفسـه أو ثروتـه. إنـه فـي عـداوة مريـرة مـع أحـد مـا، وكتدبيـر وقائـي، سـيعهد بقطيـع ماشـيته إلـى الآخريـن، لينتهـي بـه المطـاف مديناً بالفضـل للمئـات مـن النـاس. يعتقـد- لبلاهتـه- أنـه أظهـر سـماحة النفـس باسـتجابته لطلبـات الوضيعيـن مـن حولـه، لكنـه فـي الواقـع، أصبـح خاضعاً لهـم.

هـل ننعتـه بالشـهم، أم بالرحيـم؟ فـي مسـقط رأسـه، هـو فـي جـدال مسـتمرّ مـع ناسـه، يبـدِّد ثروتـه، ويتملّـق المِنّـة مـن أتفـه الرجـال. عندمـا يكـون البيـات فـي حالـة خصـام، يظهـر الأوغـاد مـن كلِّ نـوع ليرعبوهـم، ويعيشـوا علـى نفقتهـم.

أودّ احترام الميرزا[1]، لكن، لن تجد شهماً واحداً بمعنى الكلمة، منهم، هذه الأيام، كما أولئك الذين يبدِّدون ثروتهم الحيوانية يمنةً ويسرة، كما أنهم هؤلاء كالكلاب التائهة. بعضهم يحتفظ بقطعانه، في محاولة لكسب ميزة ما، في حين يتماهى معه آخر، على مضض، وغالباً يفعلون ذلك لكسب السمعة؛ إنهم يركضون في كل اتّجاه كمن نثَر ملحاً على ظهورهم، ومع ذلك يصبحون، في أحيان كثيرة، فريسة للأشرار.

أودّ احترام القاضي المحلّي، والمتصرِّف، لكن، في سهبنا، ليس ثمة عدالة دينية أو إنسانية. السلطة تُشترى بالخنوع أو بالمال الذي لا يكلِّف كثيراً. من الممكن أن أحترم الرجل الحصيف الثابث، لكن، أرى أن جميعنا لهم القدرة على عمل الشر، في حين ليس ثمة من هو على استعداد لعمل الخير.

أتمنّى أن أجد رجلاً حكيماً فطناً كي أحترمه. ليس ثمة من هو على استعداد ليستخدم فطنته لخدمة روح الضمير أو العدالة، في حين يتهافت الجميع من أجل الخداع والغدر.

ربما أحترم متسوِّلاً واهناً، لكنه ليس خالياً من خطيئة. ليس مهمّاً أنه لا يقدر على تسلُّق جمل رابض، ولو توفّرت له القدرة، فسوف يجد البراعة في سرقة بعض الأشياء.

1- - ميرزا: نبيل، منوط بالسلطة أو القوة.

مـن الـذي تبقّـى إذاً؟ الماكـرون والجشـعون؟ لـن يتوقّـف هـؤلاء حتـى يدمِّـروا الآخـر تدميـراً كامـلاً.

إذاً، مـن نحـبّ، وندعـو لـه؟ أهـم القضـاة الدنيئـون، والمتصرِّفـون الذيـن لا يمكـن تبجيلهـم؟

إنهـم مـا يزالـون على وفـاق مـع «البـيّ» بفضيلـة حلمـه، يعيشـون بالقـول: «إذا أردت النجـاح تجنَّـب النزاعـات». هـؤلاء يتعرّضـون للاسـتياء مـن الجميـع. ضـع فـي حسـابك- أيضـاً- أن بإمكانهـم تبديـد نصـف ثروتهـم وجهودهـم، فـي مـا لا يفيـد، لحمايـة اللصـوص والهمـج.

ليس ثمة ما يمكن فعله: على من يجب أن نشفق؟ ولمن ندعو؟

كما هو الحال: لم أجد أحداً، كذلك!.

23

ثمة بهجة وعزاء، بمثابة اللعنة، يخيّمان على الكازاخ.

الواحد منهم يبتهج عندما يقابل رجلاً معلولاً، أو يرى عملاً شائناً، يقول: «اللهم، احمنا من هذا» عادّاً نفسه رجلاً فاضلاً، مقارنةً بالحالة التي واجهها آخرون أنقياء كما الرُّضع. أم: هل وُعِد من لم يكن معلولاً لو وُجد من هو أكثر منه جهلاً أو فساداً؟ لكن، هل ستكون أحسن إذا قورنت بالنذل؟ الخير يُعلّمه الخيِّرون. في الأصل، يجب عليك أن تدرك، وتسأل نفسك: كم جواداً سريعاً، هناك، في الوراء؟ بل كم عددهم في الأمام؟

إن كان هناك خمسة أو عشرة من الجياد العربية وراء الخاسر، هل ذلك سيجعله أكثر سعادة؟.

الآن، بِمَ يجد الكازاخ العزاء؟ أحدهم يقول: «لسنا وحدنا من يودّ ذلك، كل الناس تحبِّذ ذلك. الأفضل ألّا تغرِّد خارج السرب.

الوليمـة الجماعيـة هـي أفضـل وليمـة». لكـن، هـل اللـه دعـاه كـي يكـون وسـط الجمـوع؟ هـل العلـيّ القديـر لا يقيِّـد الحشـود؟ هـل يحـرز الجميـع المعرفـة العاليـة؟ أم هـي مقصـورة علـى أنـاس مختاريـن؟ هـل كل النـاس متعادلـون فـي هبـة العبقريـة؟ أم واحـد، فقـط، مـن ألـف؟ مـن قـال أن ليـس فـي اسـتطاعة الجميـع أن يكونـوا متواضعيـن؟ إذا أصيـب النـاس بـداء، أليـس مـن الأفضـل أن يبقـى نصفهـم بحالـة جيّـدة؟ ألا نحتـاج إلـى شـخص يتميّـز بمعرفـة واسـعة علـى امتـداد الأرض، فـي حيـن يفتقـر إليهـا الآلاف، ويتخبطـون فـي الضلالـة؟ أيّهمـا أفضـل: أن تمـوت كل جيـاد الرحّالـة جوعـاً، مـرّة واحـدة، أم أن يمـوت نصفهـا؟ أيّهمـا أفضـل أن يعانـي النـاس مـن نفـوق الماشـية نتيجـة المجاعـة التـي تحـلّ بهـا، أم أن ينجـو نصفهـا؟ مـا السـلوى لغبـيّ يحيـط بـه الآلاف مـن البُلَهـاء؟ طالـب يـد العـروس ينـال مـراده إن أعلمهـا بـأن جـلّ عائلتـه يعانـون مـن سـوء التنفُّـس. سـتكون خطيبتـه لـه عونـاً عندمـا تعـرف أنـه ليـس وحـده مـن يعانـي.

24

عدد سكّان العالم أكثر من ألفَيْ مليون، الآن[1].

نشكِّل، نحن- الكازاخ- أكثر من مليونين منهم.

الكازاخ ليسوا كغيرهم من البشر، الذين يرغبون في الرخاء، ويبحثون عن المعرفة في إعجابهم بالفن، في إظهارهم للصداقة والمقدرة، في التباهي أو في العداوة.

يقاتل بعضنا الآخر، يدمِّر بعضنا بعضاً، ويتجسَّس بعضنا على بعض، قبل أن يجد الجار الوقت للانتباه.

ثمّة مدن في العالم، يفوق عدد سكّانها ثلاثة ملايين. ثمة من سافر حول العالم ثلاث مرات.

هل يجب أن نستمرّ في حياة كهذه: يتربّص أحدنا بالأخر؟ هل

1- - الزمن، هنا هو القرن التاسع عشر.

سنبقى أكثر الناس بخلاً على وجه الأرض؟ أم سنرى أياماً سعيدة، عندما تنسى الناس السرقة والخداع والاغتياب والعداوة، ونتوجّه بأدمغتنا صوب المعرفة والعمل، عندما نتعلم كيف نكسب الثروة بالطرق الصحيحة؟ أشكّ في مجيء مثل تلك الأيام. في هذه الأيام يتوق مئتان من الناس إلى مئة من رؤوس الماشية، كانوا في سلام، قبل أن يدِّمر بعضهم بعضاً، في هذا التدافع للكسب.

25

سيكون مفيداً إن تحصّل أطفال الكازاخ على التعليم. فليشرعوا في ذلك. سيكون كافياً إن تعلّموا الحروف التركية، طالما أننا في بلد غير متديِّن. قبل أن نرسل أبناءنا إلى المدرسة يجب أن نكسب الثروة، إلى جانب أنه يجب عليهم تعلُّم الفارسية، والعربية. لكن، هل باستطاعة هؤلاء الجوعى أن يحتفظوا بعقل صافٍ، ويهتمّوا بالاحترام، ويظهروا الاجتهاد في التعليم؟ العوز والشجار بين القبائل والعائلات ينتج نهج اللصوصية، والعنف، والجشع. إن كان لديك قطيع من الماشية فأنت ممتلئ البطن. التوق إلى المعرفة وإتقان حرفة تأتي لاحقاً؛ عندها يبدأ الناس في التفكير في تعليم أبنائهم شيئاً ما.

على المرء أن يتعلّم الروسية: قراءةً وكتابةً. اللغة الروسية هي المفتاح للغنى الروحي والمعرفة، للفنون، وكنوز أخرى. إذا تفادينا العيوب عندهم، والتفتنا لتبنّي إنجازاتهم، يجب أن نتعلَّم لغتهم،

ونـدرس ثقافتهـم وعلومهـم. أصبـح الـروس، بتعلّـم لغـات أجنبيـة واسـتيعاب ثقافـة العالـم، علـى ماهـم عليـه. الـروس فتحـوا عيوننـا علـى العالـم. بدراسـة لغـات الأمـم الأخـرى وثقافاتهـا، يصبـح المـرء متسـاوياً مـع الآخريـن، ولا ينزلـق إلـى طلبـات وضيعـة.

التنويـر مفيـد للديـن أيضـاً. مـن يعـشْ حيـاة التزلّـف والتذلّـل مـن السـهل عليـه بيـع أمّـه وأبيـه. سـيبيع أسـرته، يبيـع إيمانـه وضميـره قصد التنـازل أمـام مـن هـو أرفـع مقامـاً منـه. البعـض يذعـن، وينحنـي غيـر آبـه بالعـار الـذي يخلِّفـه وراءه. كل ذلـك مـن أجـل الظفـر بابتسـامة إطـراء مـن بعـض الموظّفيـن.

تعلُّـم الثقافـة واللغـة الروسـيتَيْن هـو المفتـاح لـلإرث العالمـي؛ مـن يمتلـك هـذا المفتـاح سيكسـب حيـاة مديـدة، دون بـذل جهـد كبيـر.

بعـض الـكازاخ الذيـن يعلِّمـون أطفالهـم فـي مـدارس روسـية، يفعلـون ذلـك للتباهـي أمـام أقاربهـم، عنـد الاختـلاف، بـأن أبنـاءهـم يعرفـون القـراءة والكتابـة. يجـب ألّا يكـون هـذا هـو دافعـك للتباهـي. يجـب تعليـم طفلـك كـي يكسـب رزقـه بعمـل ذي منفعـة، ودَعِ الآخريـن يحـذون حـذوك، بعدهـا، لـن نبقـى تحـت تحكُّـم طـرق النبـلاء الـروس؛ لأنـه ليـس لديهـم قانـون يُطَبَّـق فـي تسـاوي الجميـع. يجـب أن نعلّـم أنفسـنا مـا تعلَّمَـه الآخـرون فـي التسـاوي، ولنكـن الواقـي لشـعبنا، والدعامـة لـه. حتـى الآن، ليـس ثمّـة حالـة فرديـة ظاهـرة بيـن

اليافعين لمن قد تلقى تعليماً روسيّاً؛ ذلك لأن آباءهم وأقاربهم يفسدونهم، ويقودونهم إلى الضلال. ومع ذلك، يظلّون أفضل حالاً ممن لم يتلقّوا تعليماً على الإطلاق.

وإنه لمن المؤسف أن كلّ ما تعلّموه لا يعدو أبعد من ترجمة كلمات الآخرين.

الأثرياء، نادراً ما يرسلون أطفالهم إلى للمدرسة: يفضِّلون بدل ذلك إرسال الأطفال الأشدّ فقراً، ليُعاقَبوا ويُذَلّوا على أيدي المعلِّمين الروس. لكن، ما الذي يتعلّمه هؤلاء التعساء، هناك؟

عند الشجار بين الأقارب، يصرخ أحدهم، أكثر من معاناته بسبب تحقيرك له: سأرسل ولدي إلى التجنيد، وليَطُلْ شعري ولحيتي! مثل هؤلاء الناس لا يخافون العقاب الإلهي أو الإحساس بالخجل. ماذا تكون نتيجة الإنجاز لمثل هذا الشخص، حتى إن انكبَّ على الدراسة؟ هل سيجني منفعة كبيرة؟ هل سيذهب أبعد ممّا ذهب إليه الآخرون؟ لن يعطي مقدار ذرّة من الاهتمام للتعليم، إنه يذهب إلى المدرسة، حيث يجلس لبرهة، ثم يغادر. ليس ثمّة علامة لهفة أو اجتهاد! والده يوافق، بصعوبة، على تعليمه، وإن لم يجد أحداً يدفع المصاريف. مثل هذا الأب يجتزئ من ثروته لتعليم ابنه.

لك هذه النصيحة: لست مضطرّاً أن تجد زوجة لابنك، أو تجعل منه غنيّاً، بل امنحه تعليماً روسياً دون تقصير، حتى لو دفعت كلّ ما جنيته؛ لأن هذا يستحقّ كلّ التضحية.

إن كنت تجلّ الله، ولديك الحياء، إن أردت أن يكون ابنك رجلاً بمعنى الكلمة، أرسله إلى المدرسة، لا تضنّ عليه بالنفقة.

أما إن بقي أمّيّاً ونذلاً، فمن سيستفيد؟ هل سيكون عزاءك وسلواك؟ هل سيكون هو نفسه سعيداً؟ هل سيكون قادراً على تقديم أيّة منفعة إلى شعبه؟

26

يبتهج الكازاخي إذا فاز جواده بالسباق، إذا كسب المصارع الذي راهن عليه، أو إذا أبلى كلب صيده أو صقره بلاءً حسناً في الصيد. أتساءل: هل ثمّة ما يسرّه في الحياة خلاف ذلك؟ أشكّ.

لكن، ما البهجة العظيمة في مشاهدة مخلوق يتفوّق على غيره في السرعة والرشاقة، أو أن يطرح مصارعاً غيره على الأرض؟ ليس المرء نفسه أو ابنه هو مَن نجح، حتى يدخل في طرب النشوة. لسبب هو الأتفه، يريد أن يزعج جاره، ويجعل منه حسوداً. حقاً، ليس ثمّة من عدوّ أسوأ للكازاخي من كازاخي مثله. من الشائع أن الغيظ والحسد هما ضدّ نواميس الشريعة، أيّة راحة يجنيها الكازاخي في إثارة حقد الناس عليه؟ لماذا هو مستمتع بذلك؟ لماذا يغتاظ الناس من النجاح أكثر من الحظّ؟ هل يعدّون أنفسهم مذلولين؟

فَرَس الرهـان موجـودة الآن فـي القريـة، الصقـر الجيّـد أو كلـب الصيد فـي يـد رجـل واحـد الآن، فـي حيـن يكـون آخـر فـي يـد أخـرى. وأقـوى الرجـال لا ينحـدرون جميعهـم مـن القريـة نفسـها أيضـاً. كل هـذه النوعيـات ليسـت مـن صنـع اليديـن. هـؤلاء الذيـن أحـرزوا، مـرّةً، قصـب السبق، وابتهجـوا بالنصـر، لـن يكونـوا، دائمـاً، هـم الأسـرع أو الأقـوى. لمـاذا إذاً؟ هـل هـؤلاء يغتاظـون، كمـا لـو أن مكيـدة سـوداء أو عمـلاً وضيعـاً صنعـوه، قـد كُشِـفا؟ لمـاذا يعانـون كمـا لـو أنهـم تَـمّ الحـطّ منهـم ومـن مراكزهـم؟ ليـس صعبـاً كشـف السـبب: الجَهَلـة يبتهجـون لأيّـة مبذلـة، لأيّ شـيء تافـه. عقولهـم تثمـل مـن شـدّة السـرور، هـم ليسـوا كمـا يقولـون أو يفعلـون. يشـعرون بالخجـل ممـن ليـس أقـلّ منهـم خجـلاً، لكنهـم يسـلكون أكثـر المسـالك خزيـاً، دون خجـل؛ هـذه علامـة الجهـول والمتهـوِّر. إن قلـت هـذا للكازاخـي، سيسـتمع وسـيوافقك: «نعـم، هـذه حقيقـة». لكـن، لا تأخـد بكلماته، هـو مثـل الأغلبيـة: إنـه يـرى ويتفهّـم كل ذلـك، هـو كالمخلـوق العنيـد الـذي لـن يتراجـع عـن سلوكه الشـرير، ولـن يقـدر أحـد علـى أن يثنيـه أو يكبـح جماحـه، أو يرجعـه إلـى رشـده. عمـل الإثـم ديدنـه، لـن يتخلّـى عـن ذلـك. فقـط، خـوف كبيـر، أو المـوت، همـا مـا يقطـع عنـه سـوء السـلوك.

حسناً، لن تجد شخصاً يصرِّح بخطئه، حاول أن تضبطه.

27

هاهي كلمات سقراط العظيم عن الخالق كليّ القدرة، في محاورة مع تلميذه أرسطو:

سقراط: «حسناً، أرسطو، هل تعتقد أن ثمة أناساً في الدنيا، وجودهم جدير بالإعجاب؟».

أرسطو: «يوجد العديد منهم، أيّها الأستاذ».

سقراط: «أنا معجب بهوميروس وبأشعاره الملحمية، ومآسي سوفوكليس، قدرة بعض البشر على تقمُّص أدوار أخرى، وأعجب بصورة زيوس.»

(يورد، هنا، أرسطو بعض الأسماء الكبيرة).

سقراط: «من- برأيك- الأكثر إثارة للإعجاب: شخص تعوزه الحيوية، في صورة إنسان، أم المخلوق بقدرة العليّ القدير،

الموهـوب بالعقـل والـروح؟»

أرسـطو: «الثانـي بـكل تأكيـد، لكـن، أن يكـون خلقـه نتيجـة لسـبب، وليـس بالصدفـة».

سـقراط: «الدنيـا فيهـا أشـياء كثيـرة مفيـدة. غايـة بعضهـا جليّـة واضحـة، فـي حيـن لا تكشـف بعضهـا الآخـر بالحـدس، فـي شـكلها الخارجـي. مـا رأيـك فـي مـا تكـون نتيجـة سـبب، ومـا هـي حاصلـة بالصدفـة؟».

«بالتأكيد، الأشياء الجليّة هي نتيجة سبب»، أجاب أرسطو.

«جيـد، الإنسـان فـي خلقـه، وَهَبـه العلـيّ القديـر خمـس حـواس ضروريـة: وهبـه عينيـن ليـرى البهجـة والجمـال مـن حولـه، وجعـل لهمـا جفنيـن ليغمضهمـا ويفتحهمـا، وأهدابـاً لحمايـة العيـن مـن الغبـار، وحاجبيـن لتفـادي العـرق النـازل مـن الجبهـة.

مـن دون أذنيـن لا نسـتطيع سـماع الصـوت الأجـش أو العـذب، ولـن نسـتمتع بالغنـاء والموسـيقى. بـدون أنـف لا نقـدر علـى الانتبـاه للأريـج الشـذيّ، أو تجنّـب الروائـح الكريهـة، بـدون لسـان وتجويـف الحلـق العلـوي، لا نقـدر علـى تـذوق الطعـم الحلـو والطعـم المـرّ، وتمييـز الناعـم مـن الخشـن.

أليست تلك الهبات غايات جيّدة؟

عيوننا وأنوفنا قريبة من أفواهنا، الأمر الذي يمكّننا من رؤية ما نأكل وتذوُّقه. باقي الأعضاء الأساسية، والتي هي غير محبّبة، غير ظاهرة كما الأعضاء في الرأس. أليس هذا شهادة على أن الله خلقنا بتدبير؟».

بعد تأمُّل، اعترف أرسطو بأن الخالق كلّي القدرة، صنع صنيعه بحبّ عظيم.

قال سقراط: «إذاً، قلْ لي: لماذا كل مخلوق هو حنون على ذرّيته؟ لماذا يكره الموت، ويسعى للحياة أطولَ زمن ممكن؟ لماذا هو مهتمّ بالخلود؟ كل المخلوقات وُجِدت للحياة، والاستمرار فيها».

ومضى سقراط في حديثه: «ألا يشبه بدن الإنسان الأرض التي عليها يمشي؟ أليست قطرة الماء من جسدك هي قطرة من ماء الأرض؟ من أين يأتي إدراكك؟ ما أصله؟ إنك بفضل هبة الروح التي أصبحت وعاءً لذكائك السامي هذا. تعي الكمال، والتناغم الذي به خُلِقت الطبيعة، أنت ترى، وتُدهَش، لكنك لا تفهم ما ترى!.

هل الطبيعة صدفة بلا معنى، أم بسبب المالك للمطلق؟ الأحجية تمتدّ على أفق التفكير الإنساني، ويمكن فهمها بسبب إرادة

المشـيئة، وبقـوّة القوانيـن الثابتـة، التـي تتناسـق بحكمـة فـي سـبب الخلـق».

«صدقـت، أيّهـا الأسـتاذ»، أجـاب التلميذ.«مـن الواضـح أن الخالـق يملـك رؤيـة سـامية، لا أشـكّ فـي قدرتـه الكلّيّـة. مع هـذا، لـن أكـفّ عـن التسـاؤل: لمـاذا يريـد الخالـق صلاتـي؟».

سـقراط: «أنـت مخطـىء يـا أرسـطو، إن كان ثمـة مَـنْ يعتنـي بـك وبخيـرك ورفاهيتـك، فأنـت مديـن لـه بالفضـل. مثـل هـذه الحقيقـة البسـيطة يجـب أن تكـون واضحـة لـك».

قال أرسطو: لكني لا أعرف إن كان يعتني بي أم لا!

سـقراط: « إذاً، انظـر إلـى الحيوانـات وإلـى نفسـك. هـل نـدرك، بالحـواس، الحقيقـةَ، بالطـرق نفسـها؟ الإنسـان قـادر علـى التفكيـر فـي ماضيـه وفـي حاضـره وفـي مسـتقبله. هـذا التفكيـر مبهـم عنـد الحيـوان، ولا يمكنـه التفكيـر فـي مسـتقبله.

قـارن الظواهـر الخارجيـة للإنسـان بالحيـوان. الإنسـان يقـف علـى سـاقين، كـي يـرى مـا حولـه، يستطيع إخضـاع أيّ حيـوان. الحيوانات تعتمـد علـى أوصالهـا وأجنحتهـا، ولا تسـتطيع إخضـاع جنسـها. هـل خلقَ الخالـقُ الإنسـان عاجـزاً، كمـا الحيـوان، كـي يكـون غيـر صالـح لشـيء؟ لقـد خلـق الإنسـان ليكـون سـيّداً علـى الأرض. حتـى إن

كان للحيوان بعض صفات الإنسان فهو غير مزوّد بالقدرة على الكَدّ، أو تعلُّم الخطابة أو الفضيلة. فكّر، هل بإمكان الثور بناء مدينة، أن يصنع الأدوات، ويكون حرفياً ماهراً. الواقع أن الخالق وهب الإنسان معرفة عالية ووضعها في الجسد المناسب، لتتَّحدَ، معاً، القوّة الروحية والأخلاق الحميدة؛ وهذا دليل أن الله خلق الإنسان محبّاً للعناية والاهتمام والحرص، كل ذلك مدروس؛ أليس البشر ملزمين بعبادة الخالق؟»

بهذا، ختم الأستاذ حديثه.

28

المسلمون!

الدنيـا فيهـا الغنـيّ وفيهـا الفقيـر، الصحيـح والمريـض، الحكيـم والغبـي، الجيّـد والـرديء. إن سـأل أحـد: لمـاذا هـي كذلـك؟ سـتجيب: «إنهـا إرادة اللـه».

يحـدث أحيانـاً، علـى أيـة حـال، أن اللـه يَهَـب الغنـى لمـن يشـاء، فـي حيـن ثمّـة مـن يعبـد اللـه ويكـدح بجـدّ، وبالـكاد يطعـم زوجتـه وأطفالـه، هـو مسـالم وغيـر مـؤذٍ، وغالبـاً، هـو واهـن وضعيـف، غيـر أن ثمـة مـن هـو وغـد ولـصّ ويتمتّـع بصحّـة جيـدة. يحـدث أن يكـون للأبويـن ابـن ذكـيّ وآخـر غبـيّ. يحـضّ الله كل إنسـان علـى أن يكون طاهـراً ومسـتقيماً. يرشـد الصالحيـن إلى الطريـق السـليم، والخُطاة إلى الطريـق الأخـر. يكافـئ الصالحيـن بنعيـم الجنـة، والآثميـن بعـذاب جهنـم. أليـس ذلـك يناقـض العدالـة الإلهيـة؟ النـاس وأملاكهـم مـن

الله. وهو يوّزع ملكه كما يشاء.

كيف نفهم أفعاله؟

بافتراض أن الله لايخطئ، وتُنسب إليه تلك الأخطاء، أيعني هذا أن نلتزم الصمت خوفاً منه؟ إن كانت هذه قضية، ماذا كسب الإنسان الفاني من أعماله وجهوده إذا كان كل شيء بإرادة الخالق؟ إذاً، البشر غير ملومين. سواء أكانت أعمالهم خيِّرة أم كانت شريرة؛ أهم ينفِّذون إرادة الله؟

الإنسان العاقل يجب أن يعرف أنه من واجب المؤمن أن يفعل الخير.

إن لم تُمنح الحرّية لسبب؛ إذاً: ماذا عن الحقيقة: «ليعرّفني من يملك عقلاً». لو أن في ديننا خللاً، لماذا- إذاً- يحظَّر على الإنسان العاقل التفكير في ذلك؟ الإنسان الذي هو في أحسن تقويم وبدون إيمان، ما قيمته؟ يجب أن تعرف أن الله أوجد الخير والشر، لكن، ليس هو من ينفّذهما. والله هو الذي أوجد الغنى والفقر، لكن ليس هو من يجعل البشر أغنياء أو فقراء، الله هو من أوجد الأمراض، لكن ليس هو من يجعل البشر تعاني منها، وإلا فسيغدو كلّ شيء غباراً وهباءً.

29

بعـض أقـوال الـكازاخ تسـتحقّ الاهتمـام، وبعضهـا الآخـر لا يؤبـه بـه، لأنهـا لا تحمـل أيّـة إشـارة إلهيـة أو إنسـانية.

يقـول الـكازاخ: «إذا كنـت تعيـش فـي عـوز، اطـرح مـن حسـابك الخجـل». ملعونـة تلـك الحيـاة التـي لا تعـرف الخجـل!

لكـن، إذا كانـت الأمثلة تحـضّ على تجنُّب الكـدح في العمـل، فإن الوضيـع هـو مـن يعمـل بهـا. الإنسـان الأخلاقـي يجـب أن يكسـب قوتـه بإخـلاص، لا أن يعيـش علـى الصدقـات، أو يعمـد إلـى الكسـل.

ويقولـون: «الإنسـان الذكـي يقـدر علـى البهجة في أحلك الظروف»، و«تسـتطيع الحصـول علـى أي شـيء، إن عرفـت كيـف تسـأل». بعض الأقـوال مدانـة مـن اللـه! أليـس مـن الأفضـل أن تكسـب قوتـك مـن الأرض بكـدّك وعـرق جبينـك، بـدل أن تعـوّل علـى المكـر واسـتعطاء كسـرة الخبـز علـى موائـد الأخريـن؟

«إن كنت مجهولاً فالجحيم أمامك». لكن، ما حاجتك إلى السمعة السيئة؟

«أن تكون فحلاً ليوم واحد أفضل من أن تكون مخصيّاً لمئة يوم» لكن، ما الفائدة التي ستجنيها من انغماسك في الملذّات ليوم واحد لتخلِّف الخراب في أعقاب ذلك؟

«حتى الملائكة تضلّ الطريق عند رؤية بريق الذهب». ما حاجة الملائكة للذهب؟ بمثل هذه الأقوال يبرِّر الناس جشعهم، فحسب.

«خزنة المجوهرات أعزّ من الأب والأم، إلا أن حياتك أغلى من قصر من الذهب». الآن، ما الثمن الذي يضعه وغد في حسابه عندما يُعلي من قيمة خزنة المجوهرات على قيمة والديه؟. فقط، الشخص الذي يكون بلا عقل أو ناموس مَنْ يبدِّل الأمّ والأب بالذهب. الأبوان يكدحان من أجل رفاهية أطفالهم، والذي يساوي والديه بالمجوهرات يقترف إثماً وضيعاً.

على الإنسان أن يحذر في ترديد أمثالٍ تولِّد التعصُّب، والطيش، وعدم مراعاة حقوق الآخرين ومشاعرهم.

30

مَنْ ننعته بـ(المتبجِّح، الثرثار) موجود بيننا؛ إذا اختبرت أربعين من الناس سوف تجد واحداً منهم من تلك النوعية. فيم ينفعون؟ ينقصهم الإحساس واحترام الذات، أفقهم ضيِّق وسطحيون، تنقصهم الشجاعة والضمير المتيقِّظ.

البعض منهم يقذف كلاماً في تبجُّح: «لا تزعجني. هل الآخر أفضل مني؟ هل قامة الآخر أطول من قامتي؟ هل وضع لحماً في قِدري، أو منحني ماشية للَّبن؟». أو يتكلَّم بحدّة قصد النية السيئة: «لماذا أبخل على نفسي؟ أليست حياتي تستحقّ الكثير؟ أنا مستعدّ لمواجهة الرصاص بشجاعة، أو أنا أبتعد لسبب نبيل! نحن نموت ميتة واحدة».

هل صادفت هؤلاء الكازاخ الذين يعملون بمثل هذه الأقوال؟ عن نفسي أقول: لم أرَ واحداً روَّض نفسه على الموت، غير أنه

ليس ثمة من يعترف بخوفه من الموت. الحقيقة أن أيّ واحد منهم كما لو أنه سيشقّ حنجرته براحة يده في إيماءة استعداد للتضحية: «لأكن القتيل في الحال» هل هذه الأقوال صادقة؟ حديثهم- ربّما- يخدعنا: إن لم يكن بذكاء صاحبه، فبجرأته المذهلة. بعدها، ماذا نقول عن أحدهم عندما يجبن وينسلّ إلى أقرب حفرة ساعة الجدّ؟ هذا لا يعدو كونه شجاعة زائفة لترويع مخلوعِ الفؤاد كي يعترف: «في الحقيقة، غضبه فظيع».

يا الله، لو كان طيّب القلب شهماً وغير أناني! إن كان شجاعاً وصادقاً في قوله، ألا تظهر هذه الصفات المباركة على محيّاه؟

هذا الشخص من النماذج المخزية التي نقول عنها: «وجه صفيق لا يملّ الثرثرة».

31

يمكننـا تعيين أربعة مفاهيم أساسية لـلإدراك الحسـي ونفـاذ البصيـرة، وحفظها عـن ظهـر قلـب:

أولاً، يجب أن تكتسب الواعز الديني والعزم.

ثانيـاً، يجـب أن تولـي اهتمامـاً بالنصيحـة، بيقظـة وقلـب مفتـوح، تـوّاق لفهـم المغـزى منهـا؛ أي مـن النصيحـة.

ثالثاً، يجب أن تتأمّـل- مليّاً- فـي الأقـوال الحكيمـة وتردِّدها دائماً، فلها موضع الأهمّية بالنسبة للذاكرة.

رابعاً، يجب تجنُّب المواقف والحالات الضارّة للعقل، ومقاومتها، حتـى لـو كانـت مغرية. هـذه الحالات هـي: الكسـل، والإهمـال، واللامبـالاة، واللهـو الأحمـق الفـارغ، والميـل للكآبـة التـي تحبـط العاطفـة.

هذه النقائص تدمِّر عقلك وموهبتك.

32

هـؤلاء الذيـن يبحثـون عـن التعليـم، ينبغـي عليهـم معرفـة شـروط أساسـية، بدونهـا لا يمكنهـم تحقيـق أهدافهـم:

أولاً، يجب ألّا تطمح في كسب من وراء تعليمك. يجب أن تتعلّم من أجل ترقية نفسك، وأن تكافح من أجل ذلك. إذا عددت المعرفة نعمة سامية، فكل حقيقة صغيرة تكتشفها سوف تعود عليك بالسلام، والرضى الروحي، الحفظ، عن ظهر قلب، لما يشكِّل لك جديداً، عندها، ستشعر بالرغبة في البحث عن المزيد، وحبّ المعرفة- حينئذٍ- سيولَد في قلبك. وستمتصّ ذاكرتك كلّ ما سمعته وشاهدته.

لكن، إن كان لديك مبتغى آخر في ذهنك، فابحث عن المعرفة قصد الثراء، فحسب، موقفك من التعليم سيكون كالربيبة بالنسبة للمرأة. إن كانت روحك وعقلك بخير قصد المعرفة، سيكون

استـعدادك عـن طيـب خاطـر.

ثانيـاً، الدراسـة لأهـداف جلّيّـة ونبيلـة، وليـس للدلالـة على مجادلتـك للآخريـن. المحاججـة فـي حـدود المعقـول تسـاعد المرء فـي قناعاته، لكـن الحماسـة المفرطـة تفسـده. عشّـاق الجـدل يندفعـون فـي الخلافـات، ليـس بقصـد التحقُّـق مـن الشـيء بالتجربـة، بـل للتباهـي بمعرفتهـم وبسـط أيديهـم علـى النـاس. مثـل هـذه النزاعـات تنتـج الحسـد، ولا تضيـف مثقـال ذرّة للإنسـانية، بـل علـى العكـس مـن ذلـك، هـي لا تخـدم المعرفـة، وببسـاطة، تشـوِّش النـاس. هـذا سـلوك عقيـم ومثيـر للمتاعـب. الـذي ضلَّـلَ مئـات الأشـخاص عـن الصـراط المسـتقيم لا يسـاوي أصبعـاً صغيـراً لشـخص نجـح فـي إعـادة شـخص واحـد إلـى نهـج الحقيقـة.

صحيـح أن المناظـرة هـي إحـدى طـرق المعرفـة، إلا أن الشـخص الـذي يهـب نفسـه- تمامـاً- لهـذه المسـارات المجازفـة يصبـح مغـروراً ومتكبِّـراً، عرضـةً للحسـد وللقيـل والقـال. مثـل هـذا الشـخص لـن يبغـض تشـويه سـمعته، وكذلـك حـال الاغتيـاب، والقـدح، اللذيـن يقلِّـلان مـن كرامـة الإنسـان.

ثالثـاً، إذا نجحـت فـي سعيك وراء الحقيقـة، فـلا تتراجـع عنهـا حتـى مـع أوجـاع المـوت. لكـن، إن لـم تكـن مقتنعـاً بمعرفتـك، فـلا تتخيّـل أن شـخصاً آخـر سـوف يقدِّرهـا. إن لـم تقـدّر أنـت معرفتـك، كيـف

تتوقَّع الاعتراف بها من الغرباء؟.

رابعاً، ثمّة وسيلتان تساعدانك في اكتساب المعرفة: الأولى مولاكازا (فن المناظرة)، والأخرى موكافازا (قوّة الدفاع عن الفكرة). ولضرورة الكفاح المستمرّ لإنجاز ذلك، من المستحيل تعزيز معرفتك وتطويرها، من غيرهما.

خامساً، تحدّثت، منذ قليل، عن أربعة مواقف مؤذية للعقل، ومن خلالها تعرّفنا إلى الكسل والتفاهة. أفرض عليك أن تكون حذراً من هذه الشرور؛ إنها مهلكة في مواجهة الله، وللمرء نفسه، مهلكة لكينونتك وشرفك. إنها العدو الرئيسي لكل شيء! مع ذلك، ليس ثمة مكان للشرّ عندما يسكن المرءَ الضمير.

سادساً، شخص المرء وعاء للذكاء والمعرفة؛ لذلك طوّر شخصيتك، وأنت- بسماحك لنفسك أن تكون تحت تأثير كلمات الآخرين وهوى خاطف- ستفقد قوّة شخصيّتك. التعليم لا فائدة منه إن كان الوعاء الذي يستقبل المعرفة ليس سليماً.

لتحقيق هدفك، ولتكون مخلصاً لواجبك، يجب أن تتحلّى بالجَلَد في سبيل غايتك، وبعزمك وبقوّتك؛ لذلك احتفظ برزانتك ورشدك ونقاء ضميرك.

كلّ شيء يجب أن يخدم كينونتك وشرفك.

33

إن أردت الإثـراء فتعلَّـم التجـارة. الثـروة تنقـص بمـرور الزمـن، لكـن المهـارة تـدوم. الـذي يبيـع الفواكـه نتـاج عملـه دون غـشّ سـيُكبِره النـاس، ومـع ذلـك، لا يمكـن لمَـنْ منحهـم اللـه موهبـة المهـارة أن يتجنّبـوا بعـض الرذائـل:

أولاً، هـم لا يسـعون لصقـل مهارتهـم بالبحـث عـن التعلُّـم مـن أمهـر الحرفييـن. مكتفيـن بالقليـل مـن البراعـة التـي لديهـم، مثـل هـؤلاء، يطلقـون العنـان للتراخـي والكسـل.

ثانيـاً، يجـب علـى المـرء أن يبجّـل عمـل الآخـر، لكـن، ثمّـة مـن اكتسـب بعـض الماشـية، فاعتقـد أنـه ثـريّ، وأصبـح كسـولاً متبجِّحـاً ومهمـلاً لعملـه.

ثالثـاً، إن فاتـح شـخص أحدهـم فـي طلـب مثـل: «أنـت رجـل علـى مقـدرة، وشـهم، ولـن يكلفّـك كثيـراً إن خدمتنـي فـي هـذا أو

ذاك» فسينتفخ فخراً، ويعتقد أنه أصبح مهمّاً، ويدنو منه الناس للمساعدة، يستسلم للإطراء والغرور، ينفق وقته الثمين في السماح للمكر والتملُّق يخدعاه.

رابعاً، مثل هؤلاء توّاقون لصداقة أيّ أحد. إن احتال عليهم محتال بالشيء القليل، فَسيَعِدونه بالمساعدة، ويشعرون بالحبور من أن شخصاً ما يحتاج صداقتهم. هنا، تنكشف سذاجتهم وقلّة درايتهم. إنهم مستعدّون لتصديق اللسان الكاذب، ويبتهجون لتحيّة مزيَّفة من أصدقاء مزيَّفين، إنهم لا يدَّخرون وسعاً في مساعدة هذه النوعية في مزاعمهم. يعطون بقدر نسيانهم. ماذا يجنون في المقابل؟ يهتمّون به ويلتزمون، وإن لزم الأمر يستدينون له من أيّة جهة. من أجل إرضاء الآخرين، يضيِّعون أوقاتهم، ويراكمون ديونهم، ويتورّطون في نزاعات بسبب هذه الديون، يخسرون ماء وجوههم، ويعيشون الحاجة والخزي.

لماذا يحدث هذا؟ لأنهم في ميلهم لخداع الآخرين، يخدعون أنفسهم، ومن ثَمّ يقعون فريسة الخداع.

34

الجميع يعرفون أن الإنسان فانٍ، ذلك أن الموت لا يأتي بسبب الهرم وحده، الموت الذي يأخذ الإنسان بعيداً، ولا يعيده. الكازاخ قلقون بسبب هذا، ولكن، دون عمق في التفكير.

الكازاخ يؤمنون بالله الذي سوف يحاسبهم بعد مماتهم: يكافىء الأخيار، ويعاقب الأشرار. إنهم يؤمنون بأن كلّاً من المكافأة والعقاب يختلف بالنسبة إلى هؤلاء الذين كانوا يعيشون على الأرض: مكافأة الله لهم لا حدود لها، لا لسبب إلا لسماحة أنفسهم، في حين يكون قصاصه قاسياً وهائلاً. لكنني لا أثق في كلماتهم هذه؛ ذلك أن إيمانهم ليس صادقاً، ولا ينمّ عن ضمير. إن كان إيمانهم يوافق قولهم فلن يعرفوا الأسف. هل يمكن إقناع بشر كهؤلاء ببعض الأمور الأخرى إن كان إيمانهم ضعيفاً، حتى فيما يتعلّق بمثل هذه الحقائق؟ كيف يمكن تصحيح مساراتهم؟ هل من الممكن تسميتهم مسلمين؟

علـى الـذي يريـد تجنُّـب العـذاب فـي هـذه الدنيـا وفـي الآخـرة أن يتذكَّـر شيئاً واحـداً: ليـس ثمـة سـعادتان وعاطفتـان وارتيابان وأسَـفان فـي قلـب المـرء، فـي وقـت واحـد. هـذا مسـتحيل، الـذي يضـع الأفـراح والأتـراح الدنيويـة بعيـدة عـن العالـم القـادم ليـس مسـلماً. الآن، لـك أن تحكـم: أيّ نـوع هـم الـكازاخ. لـو خُيِّـروا بيـن شـيئين: أن يكونـوا خالديـن فـي قبـر، أم خالديـن فـي الحيـاة. سـوف يختـارون الخيـار الثانـي بالتأكيـد، علـى أمـل أن يحظـوا بالخيـار الأوّل فـي مناسـبة أخـرى، ويؤمنـون بـأن اللـه، لرحمتـه الواسـعة، سـيغفر لهـم خيارهـم الخاطـئ، قبـل يـوم الحسـاب، سيقْسـمون بأنهـم لـن يبدّلـوا مباهـج الدنيـا بمباهـج الآخـرة، كيـف يمكـن تصديقهـم؟

علـى الإنسـان أن يكـون محبّاً لأخيـه الإنسـان طـوال حياتـه. ذلـك أن الـولادة والتربيـة والرضـى والجـوع والأسـف والحـزن وشـكل البـدن والطريقـة التـي يأتـي بهـا إلـى الحيـاة، والطريقـة التـي يغـادر بهـا، كلّهـا واحـدة للجميـع، فـي العالـم الآخـر الأشـياء نفسـها تنتظرنـا: مـن المـوت والدفـن والتفسُّـخ إلـى يـوم الحسـاب. كيـف تعـرف إن كنـت سـتعيش خمسـة أيـام أخـرى أم لا؟ كل النـاس ضيـوف، بعضهـم علـى بعـض، الإنسـان نفسـه ضيـف فـي هـذه الحيـاة، هـل مـن الجيِّـد- إذاً- أن نتحـدّث بحقـد، ونتسـاق فـي شـجار بسـبب الثـروة، ويحسـد بعضنـا بعضـاً بسـبب سـعادة أحدنـا، ونمضـي، يسـيء بعضنـا إلـى الآخـر مـن أجـل أشـياء تافهـة؟ أن نهـاب شـخصاً ولا نهـاب اللـه؟

أن نصلـي، ليـس مـن أجـل السـعادة الروحيـة، بـل مـن أجـل أمـور دنيويـة؟ أن نحسـد الآخـر علـى نِعَـم يتمتَّـع بهـا؟ هـل نرجـع إلـى اللـه بمثـل هـذه الأسـباب والالتماسـات؟ هـل اللـه يـذلّ شـخصاً ويحرمـه؛ إكرامـاً لشـخص آخـر؟

عندمـا لا يكـون لـك عقـل سـليم وتعليـم نافـع ولا تسـتطيع قـول كلمتيـن، وتتجـادل بعنـاد وصلـف مـع رجـل حكيـم، هـل يمكـن أن تكـون إنسـاناً؟ هـل هـذه صفـة الإنسـان، الإنسـان الحقيقـي؟.

35

في يوم الحقّ، يسأل العلي القدير المراتب الدينية، كالسادة والملالي والحجّاج الشيء الكثير عن مدة حياتهم على الأرض، عن أعمالهم التي يبغون من ورائها الاحترام فقط، سيميِّزهم عن أولئك الذين ينشدون رضوان الله.

لهؤلاء سيقول: «خلال حياتك الأرضية خدمتني رياءً، قصد البحث عن الاحترام عند الناس، لكن ذلك انتهى الآن، حياتك السعيدة انتهت، وكذلك سلطتك على الناس. هنا ليس مكان التكريم، بل الحساب عن كل أعمالك، وستجيب عن الأسئلة. وهبتك الحياة ومنحتك الثروة، لكنك وظّفتها لفائدتك الشخصية، خدعت الناس تحت ستار هيئة الحريص على العالم الآخر».

لكن، للذين خدموه حقيقةً، سيقول لهم العليّ القدير: «طوال حياتكم، وفي كل أعمالكم سعيتم لرضاي، فأنا راضٍ عنكم،

مكان الشرف في استقبالكم، ومُرحَّب بكم، ربّما ستقابل أشخاصاً ساعدتهم أو آخرين ساعدوك بحسن نواياهم، إذاً، ابتهج).

36

يقـول نبينـا الكريـم- صلـوات اللـه وسـلامه عليـه- أن الحيـاء شـعبة مـن الإيمـان». قومنـا- بالمثـل- يؤكِّـدون هـذا الحديـث فـي بعـض أمثالهـم: «الـذي لديـه حيـاء لديـه إيمـان».

يتّضح، الآن، أن الحياء جزء متمِّم للإيمان، لكن، ما الحياء؟

ثمّـة حيـاء وليـد الجهـل، إنـه القريـب مـن تـردُّد الطفـل الـذي يخجـل مـن التفـوُّه بكلمـة أو الدنـوّ مـن الغريـب، الـذي هـو معفـيّ مـن قوانين الشـريعة، ولـم يتبلـور الضميـر لديـه بعـد. لكنـه يخجـل ممـا ليـس منـه خجـل مُظهـراً علامـة علـى الغبـاء وقلّـة التهذيـب.

لكـن الهـوان الحقيقـي هـو الـذي يشـعر بـه مـن يعمـد إلـى مخالفـة قوانيـن الشـريعة، وإيـذاء الضميـر وسـموّ المنزلـة الإنسـانية.

مثل هذا الهوان نوعان:

الأول هو أن تخجل، ليس من أجل نفسك، بل من ذنب شخص آخر، بسبب إحساسك بهذا الإثم، وتفكِّر بينك وبين نفسك: يا الله، ماذا حدث لهذا الرجل؟ لماذا أقدم على مثل هذا العمل غير اللائق؟، ثم تشعر بالاستحياء من أجله.

الثاني هو إثمك في مخالفة كلّ من الشريعة، وضميرك، وإنسانيّتِك، عند ارتكابك خطأً أو عملاً غير صالح عن غير قصد. ربّما، لا يدرك حجمَ الخطأ غيرُك، لذلك فإن عقلك وكيانك في كرب، وسيعاقبانك. تعيش القلق، غير قادر على النظر في عيون الآخرين، وتضحي تعاني.

الذين لهم هذا الشعور من الحياء، يفقدون شهيّتهم للطعام، يجدون صعوبة في النوم، وفي غمرة هذا القنوط واليأس- ربَّما- يعمدون إلى الانتحار. شعور الحياء والخجل مرتبة من الكرامة الإنسانية التي تُخضع المرء للاعتراف بذنبه أمام نفسه، ومواجهة ما يترتّب عليه من عقاب. في مثل هذه الأيام، أنت عاجز عن التفكير ومُرتَبِكٌ في الحديث، ليس لديك الوقت الكافي لمسح الدموع عن وجهك، تشعر بنفسك كما الجبان المتباكي، غير قادر على مواجهة نظرات الناس إليك، تتعامى عما يحيط بك. الشخص الذي يعرف عن مثل تلك العذابات، بدلاً من مسامحة الآثم برحابة صدر، يجعل من معاناته النقيصةَ الأسوأ في الرحمة

الإنسانية.

القوم الذين أراهم حولي هذه الأيام لا يستحون من شيء، وعاجزون عن الخجل. يقولون: اعترفت بذنبي، ماذا تتوقَّع مني أن أفعل فوق هذا؟، أو يجدون أعذاراً: نعم سلوكي كان سيِّئاً، ولكن، ألم تسلك أنت مسلكي؟، أو يجادلون: هذا وهذا من الناس فعلوا كذا وكذا، ولكنهم يسيرون في الأرض كما أنه لم يحدث شيء. مقارنةً بهم لم أقدم على خطأ، على الرغم من توفُّري على الأسباب لعمل هذا الشيء أو غيره. بدل الشعور بالحياء من عملهم يظلّون يبحثون عن تبرئة أنفسهم.

ماذا نطلق على مَنْ يكون من هؤلاء: وجهه خجول، أو صفيق الوجه؟ الحديث الشريف والأقوال الحكيمة لا تسمح لنا بوصفه بأنه ذو وجه خجول.

الآن، هل يملك مثل هؤلاء الإيمان أم لا؟

37

1 - الحكم على طبيعة الإنسان يكون من خلال مغزى عمله، وليس حصيلة ذلك العمل.

2 - مهما كانت الفكرة جيّدة، فإنها تتشوّه عبر مرورها بالشفاه الإنسانية.

3 - قد تجد العزاء في إسداء نصح للمغرورين بكلمات حكيمة، إلا أن تلك النصائح- في الغالب- تتلاشى في الهواء.

4 - الردّ جيّد للإنسان الحكيم، لكن الأحمق يفسد به.

5 - أبو الابن عدوّ للآخرين، لكن ابن الإنسانية هو أخوك الأعزّ.

6 - الإنسان القنوع قد يسأل عن الكثير، لكنه يرضى بالقليل، الإنسان الخسيس يسأل عن الكثير، لكنه يكون مستاءً حتى وإن ظفر بأكثر ممّا طلب.

7 - الذي يعمل لمصلحته الشخصية، كالحيوان الذي يرعى لملء بطنه، لكن الذي يعمل من أجل تأدية واجبه الإنساني سيميِّزه العليّ القدير بحبّه.

8 - مَنْ سَمَّم سقراط؟ و مَنْ أحرق جان دارك؟ و مَنْ صلب المسيح؟ من أساء إلى نبيِّنا؟ العامّة، الدهماء!؟ الدهماء لا عقل لها، ابحث، مباشرةً، في طريق الحقيقة.

9 - الإنسان ابن عصره، إن كان سيّئاً فاللوم يقع على معاصريه.

10 - لو كانت عندي سلطة فسأقطعَنْ لسان من يجزم بأن الإنسان فاسد، ولا سبيل إلى تقييمه.

11 - أن تكون وحيداً، هذا يشبه أن تكون ميّتاً. الإنسان الوحيد يعاني من مِحَن شتّى.

العالم عرف أشياء آثمة وفاسدة، من كلّ نوع، وعرف السرور من كلّ نوع أيضاً، من تتحمَّل كرامتُه الأولى؟ ومن الذي لن يفسد من الثاني؟

12 - مَنْ منّا لم يعرف المتاعب؟ الضعيف- فقط- يفقد الأمل. ليس ثمّة شيء ثابت في الدنيا، وسوء الحظّ لا يدوم إلى الأبد، أليس الربيع المزهر يأتي بعد الشتاء القارس؟

13 - الـذي يكظم غيظه يحوي غضبه داخل نفسه، الـذي يسبّ، ويشتم: إما متبجِّح أو جبان.

14 - النجـاح وحسـن الحـظّ يُثمِـلان المـرء، واحـد مـن ألـف- فقـط- يحتفـظ باتِّزانـه.

15 - إذا أردت لأعمالـك النجاح، فابـدأ بما في يـدك من عمل، بحكمـة.

16 - المنصب العالي كالمنحدر العالـي. الأفعى البطيئة ستزحف إلـى فـوق، والصقـر سـينقضّ عليهـا، سـأطري أولئـك الذيـن لـم يتطلّعـوا إلـى أعلـى، فيمـا بعـد، سيكتشـفون سـبب الإطـراء.

17 - العالـم محيـط، الزمـن نفحـة هـواء، الموجـات الأقـدم هـي الأخـوة والأخـوات الأقـدم، والموجـات التاليـة هـي الأخـوة والأخـوات الأحـدث. جيـل يخلـف آخـر، رغـم أن الأمـور تبـدو غيـر قابلـة للتغييـر، فـي منـاخ السـكون والهـدوء، فـي هـذه الأحـداث.

18 - الرجل العـادي المعروف بفطنتـه، أفضـل مـن ملك جاء نتيجة الحـظّ الحسـن. الشـابّ الـذي يبيـع نتـاج عملـه أفضـل مـن الشـيخ الـذي يستعطف النـاس بشعيرات لحيتـه.

19 - المتسـوِّل وبطنـه ممتلـئ هـو الشـيطان مجسَّـداً، الصوفـي

الكسـول منافـق.

20 - الصديـق المزيَّـف كالظـلّ: عندمـا تكـون الشـمس مشـرقة عليـك لـن تتخلّـص منـه، وعندمـا تتجمّـع فوقـك السـحب لـن تـراه أبـداً.

21 - كـن صادقـاً مـع مـن ليـس لديـه صديـق، ابـقَ علـى علاقـة متبادلـة مـع هـؤلاء الذيـن لديهـم العديـد مـن الأصدقـاء. احـذر الإنسـان الطائـش، كـن سـتراً للمحـروم والمُعـدَم.

22 - لا حاجـة إلـى الغضـب بـدون قـوّة، وإلـى حـبّ بـدون إخـلاص، ذلـك كمـا المعلّـم بـدون تلاميذ.

23 - عندمـا تبحـث عـن السـعادة فـإن الجميـع يتمنّونهـا لـك، لكـن، عندمـا تحقِّقهـا تـدرك أنـك أنـت- فقـط- مـن سـعى إليهـا.

38

أطفالـي الأعـزّاء، يـا سـلوان القلـب، كتبـت، لتـوّي، بعـض الأقـوال عـن الأعمـال الإنسـانية، أورثكـم مـا كتبـت علـى سـبيل التذكـرة، وسـيغمر الحـبّ أفئدتكـم.

الحـبّ الإنسـاني متـلازم مـع الوجـود بـإدراك إنسـاني، والمحبّـة والتعاطـف مصـدر هـذه المزايـا التـي تنشأ عنـد الإنسـان منـذ ولادتـه: الصحـة الجيّـدة، والمظهـر الحسـن، أمـا الباقـي فيتوقّـف علـى نبـل روح الأب والأمّ، وعلـى الناصـح المخلـص والأصدقـاء الجيديـن. الحـبّ يولِّـد الطمـوح والتفاهـم، الإدراك والمحبّـة يثيـران الشـوق للتعلُّـم. الطفـل لا يتـوق إلـى التعلّـم مـن محـض إرادتـه، بـل يجـب إجبـاره علـى البحـث، أو إقناعـه حتـى يكتسـب العطـش للمعرفـة. الطفـل الباحـث عـن المعرفـة- ربّمـا- يُعَـدّ إنسـاناً بمعنـى الكلمـة، هـو- بـدوره- يناضـل لمعرفـة اللـه، ويعـرف نفسـه، ويعـي مـا حولـه، سـوف يفعـل الخيـر، لكـن ليـس علـى حسـاب شـرفه، وسـيتجنَّب

الشرّ، وإلا سيكون محكوماً عليه أن يعيش في الجهل، أو كحيوان، وينال معرفة سطحية. من المخزي أن بعض الآباء يُنشئون أطفالهم تنشئة سيِّئة، ثم يعهدون بهم إلى الملالي، إلا أن مثل هذا التعليم لا نفع من ورائه. الأطفال الذين تعرّضوا لإفراط في التدليل، منذ الولادة، لا يظهرون شغفاً بالتعليم أو بالدين، أو احترام مدرِّسيهم الخاصّين. سوف لن ينموا كبشر حقيقيين.

أصعب الأشياء هي غرس روح الإنسانية وتطبيعها بالمحبّة والعطف، ذلك أن الله هو طريق الحقّ والصدق والإخلاص، وهذه الصفات ضدّ الشرّ. هل يقبل صديق دعوة من عدوّ؟ لا يمكن الظفر بالحقيقة ما لم تكن النفس في شغف لها. المعرفة الإنسانية تُكتَسَب عن طريق معاني حبّ الحقيقة، ومن خلال العطش لمعرفة المرء لجوهر نفسه وطبيعتها. بالطبع، ليست المعرفة الإلهية. فضول الإنسان، والسعي للمعرفة يُضفيان- فقط- معرفة تتناسب مع وجود الإنسان. لكن، فوق كل ذلك يجب على المرء أن يحبّ الله. من المسلَّم به أن المعرفة إحدى صفات العليّ القدير؛ لذلك فإن حبّ المعرفة علامة على الإنسانية والاستقامة. هؤلاء الذين يسعون للكسب الزائف والرديء والأنانية لن يصلوا إلى قمّة المعرفة. دع الثروة واحترام العامّة والشهرة التي تأتي لصاحبها بالمفخرة تلائم بعض من يتَّفق معها، لكن هؤلاء يُعَدّون من سفلة القوم.

إذا كنت شغوفاً بمعرفة الحقيقة والرغبة في التعليم، استمع بيقظة، وكن مجتهداً. المؤمن بالإسلام يجب أن يعرف أين تكمن حقيقة الإيمان؛ ذلك أن الإيمان ليس عبادة عمياء ببساطة، لنفترض أننا نؤمن بالله، هذا يعني أن حكمة القرآن تعبِّر عن دلالته، والنبي المصطفى- صلّى الله عليه وسلم- هو مبلِّغ رسالة الله، وهي القرآن. ما الكسب من وراء هذا الإيمان؟ هل تؤمن بالله لأنه الله، أم من أجل نجاتك وخلاصك؟ الله هو العظيم، ولن يؤذيه فقدانك الإيمان به. إذا قلت إن إيمانك ضروري لنفسك فهذا جيّد، وهذا يعني أنك، في الحقيقة، مؤمن، ولكن إذا كان إيمانك من أجل الإيمان، فحسب، فلن تظفر بشيء. إيمانك سوف يثبت حقيقة استقامتك، وسوف يعود عليك بالمنفعة، إن رغبت فيه رغبة صادقة. يجب أن تعرف شعور المعنى والمقصد، وتعرف أن عقلانية إيمانك قد تحقَّقت.

تقول إنك تؤمن بالله، وتؤمن بصفاته وأسمائه الحسنى؛ إذاً، يجب أن تعرف أسماء الله الحسنى، يجب أن تعرف عظمة ثمانٍ من صفات الله، ما إن تدعو نفسك مسلماً، وتعبد العليّ القدير، وتخُضع فكرك ومقصدك لإرادته العليا. خلق العليّ القدير لا يمكن تقليده، ولكن، يمكنك اتّباع مناهجه في أعمالك. هذه أكثر صفات الله إشعاعاً: الحياة، والمعرفة، والقوة، والإرادة، والبصيرة، والسمع، والقول أو الحديث، والإبداع.

الخالـق وهـب الإنسـان هـذه الصفـات الثمانيـة، وهـي مـن صفاتـه، عَزّ وجَلّ، ولـو أنهـا ليسـت الكمـال المطلـق كمـا ينبغـي للعلـيّ القدير.

هـل نعـدّ أنفسـنا مسـلمين إذا لـم نوظِّـف هـذه الصفـات الموهوبـة مـن اللـه وفقـاً لمشـيئته وإرضائـه؟ يجـب أن نعـرف كيـف نتصـرَّف وفقـاً لهـذه السـمات العليـا للـه؛ ذلـك أن طبيعـة اللـه لا تحتـاج وصفـاً أكثـر ممـا هـي عليـه مـن الكمـال. مع ذلـك، يجـب أن تكـون لدينـا فكـرة واضحـة، فـي أذهاننـا، عـن تلـك الصفـات المذكـورة آنفـاً، وإلّا فلـن يكـون عندنـا إدراك للعلـيّ القديـر. لكـن، طالمـا أننـا نعـرف اللـه ظاهريـاً فلـن يعـرف أحـد منـا اللـه فـي كمالـه المطلـق. حتـى أحكـم الحكمـاء لـن يسـتوعب المعنـى الباطنـي لأفعالـه، ناهيـك عـن جوهـر طبيعتـه. اللـه كلّـيّ القـدرة، لكـن قدرتنـا محـدودة، ومـن المسـتحيل مقارنـة اللامحـدود بالمحـدود. فـي الحـرص علـى تثبيـث فكرتنـا عنـه نـردِّد: «لا إلـه إلا اللـه، وحـده لا شـريك لـه، الواحـد الأحـد»، فـوق ذلـك هنـاك مفهومـا «كينونـة اللـه»، و«الواحـد» لا يمكـن أن يوضِّحـا- ماهيّـة اللـه؛ ذلـك أنهـا فـوق الفهـم الإنسـاني، وليـس ثمّـة ظاهـرة لنقيـس بهـا وحـدة الواحـد. وبالمثـل، هـذا القيـاس ينطبـق علـى كمـال الكـون وسـلطان اللـه عليـه، كمـا يتجلّـى ذلـك فـي سُـوَر القـرآن الكريـم، حيـث الإشـارة إلـى الثوابـث الثمانيـة المتجلّيـة فـي أسـمائه التسـعة والتسـعين التـي تصـوّر قدرتـه، عَـزّ وجَـلّ.

لكــن، هنــا أودّ إمعــان النظــر فــي أربــع صفــات فقــط: الاثنتــان الأُولَيــان: المعرفــة، والقــدرة، فــي حيــن تشــكِّل الأخريــان كلّاً لايتجزّأ، وإضافـة إلـى جوهـر الأولَيَيْـن. وأودّ أن أخـصّ بالذكـر صفـة إلهيـة أخـرى هـي الحيـاة. نقـول: «لا إلـه إلا اللـه الواحـد الأحـد»، إننـا نخشـاه بصفتـه مصـدر المعرفـة، لكـن، لنفكِّـر، ملّيـاً، فـي مـدى مفهومنـا لـ«الكينونـة» و«الواحـد» و«القـدرة» و«المعرفـة». ممـا لا شـكّ فيـه أن قـوّة المعرفـة هـي قـوّة حقيقيـة: حيثمـا توجـد الحيـاة توجـد الإرادة، وهذا ـ أيضـاً ـ ينطبـق علـى المعرفـة. المعرفـة نفسـها لا تعطـي شـيئاً. كلّ حركـة علـى الأرض بـإرادة قـدرة اللـه الكلّيّـة. إحــدى الصفــات الجوهريــة لــلإرادة هــي الكلمــة، ومــن الكلمــة تتشــكَّل الكلمـات؛ هـل فـي وسـع الكلمـة الاسـتغناء عـن الحـروف المكتوبـة والصـوت؟ كلمـة اللـه- فقـط- بـدون حـروف أو صـوت. طالمـا أن هنـاك حاجـة للـكلام فلابـدّ مـن سـماع مـا يُقـال، ورؤيـة مـا هـو مرئـي. اللـه لا يسـمع، ولا يـرى مثلنـا، فإحـدى صفاتـه- عَـزّ وجَـلّ- أنـه كلّـيّ المعرفـة، ومصـدر المعرفـة.

صفـة أخـرى مـن صفـات اللـه هـي الخلـق، أي أنـه ليـس لخلقـه حـدود. إنـه الخالـق لـكلّ الأشـياء.

إذاً، مـن ثَـمّ فـإن المعرفـة والقـوة تُعطيـان اللـه صفاتـه الثمانـي كلّهـا. المعرفـة مطلقـة وغيـر محـدودة، والقـدرة مطلقـة ومعصومـة.

الحِرفي يُحكَم عليه من خلال عمله. الإنسان ليس لديه القدرة المطلقة على أن يخلق، ويوجِد كلّ شيء.

إذا كان العقل هو سيّد الإنسان، والمقدرة تخدمه في كلّ أفعاله، هل هي بالكيفية نفسها عند الله؟ بكلمة أخرى: واحدة تقود إلى الأخرى. ولكن عندها، هل يمكن لصفات الله الثماني، أن تكون في صورة واحدة، ولكنها مختلفةٌ ومستقلّةٌ كينونةً؟ كلّ هذه الخواص الثماني صادرة من خالق واحد، تجسِّد، في مجملها، الكمال الفريد لصورة الله.

سوف نقع في خطأ عندما نعزو بعض التصاميم المسبقة إلى وحدتها في الأساس؛ ومن ثَمَّ نؤمن أن صياغتها هي للتوضيح أو للتعبير عن صورة القدير. تكمن مقدرة الإنسان في عقله وفي معرفته. قدرة العليّ القدير تتجلّى في المعرفة والحنوّ والرحمة. رغم أن الحنوّ والرحمة لم تُذكرا ضمن صفاته الثماني، ذلك أنها من أسمائه: الرحمن، والرحيم، والرؤوف، والغفور، والودود.... تلك الأسماء تؤكِّد حجّتي وبرهاني وتؤيّدهما.

منطق استنتاجي يؤكِّد أيضاً، وبطريقة مماثلة، التناسق المدهش لكونية الخالق. في الواقع، كل شيء صُمّم لتبادل المنفعة: الأجسام غير الحيّة التي لا تشعر بالألم تُقدّم غذاءً للمخلوقات الحيّة؛ تُغذّي الحيوانات حياة الكائن الذكي: الإنسان. الحيوانات

مستثناة من البعث، في حين، يكون الإنسان، موهوب العقل والسلطان على كل شيء في الأرض، قادراً على الإجابة عن أعماله يوم القيامة ليدلي بشهادته أمام الله ورحمته. لقد خلق الله الإنسان، ليس بصورة الديدان، أو الطيور، أو المخلوقات الأخرى. إنه جعل للإنسان ساقين، وجعل في قمّة جسده رأساً لينظر إلى ما حوله، ولم يجعله يدبّ على أربع ليجمع قوّته مثل الحيوانات؛ وهب الخالق للإنسان ذراعين ويدين ليخدما رأسه، ومنحه أنفاً ليستروح بالأريج، منحه عينين- أيضاً- ليُلمّ بما حوله، منحه جفنين لحماية العينين، وأهداباً لمنع احتكاك الجفنين، وحاجبين لصدّ العرق المتصبِّب من الجبهة، واللسان للتواصل وللتفاهم وللعمل معاً. أليس هذا يثبت حبّ الله للإنسان؟ أليس واجباً عليك ردّ الجميل لِمَن أحَبّك؟

فقط، توقَّفْ وفكِّرْ: الشمس تمتصّ الرطوبة، وتعيدها سُحُباً لتنهمر مطراً على الزرع، والعشب والأزهار التي تُبهج عين الإنسان وقلبه، كلّ أنواع الفاكهة تنضج لتغذّي الحياة على الأرض، الأنهار التي تصبّ في البحار، والبحيرات تطفئ عطش الطيور والحيوانات. الأرض التي تمنح الخبز والقطن والقُنّب والفاكهة والتوت، تكمن في أحشائها المعادن والثروات. الطيور تمنح الإنسان الريش والبَيض واللحم، المواشي توفّر الحليب والصوف والجلد. المياه تهب السمك وسمك الكَفْيار، فيما يتكفّل النحل

بالعسـل والشـمع، والحريـر يأتـي مـن دودة القـزّ.

ليـس ثمـة أحـد فـي الدنيـا يقـول عـن هـذه الخيـرات: «كلّ هـذا لـي». كل هـذه الخيـرات للإنسـانية. المعامـل والآلات صُنعـت بجهـد عمـال مهـرة، وهـي- أيضـاً- مُعَـدّة لخدمـة البشـر.

أليـس هـذا دليـلاً علـى حـبّ العلـيّ القديـر للإنسـان؟ أليـس مـن واجـب الإنسـان مكافـأة الحـبّ بالحـبّ؟

مـن أجـل ألا يفنـى الجنـس البشـري فـإن الصنـف الحيوانـي خـالٍ مـن الجشـع المطلـق؛ ومـن ثَـمَّ، فليـس ثمّـة ضـرر للأجيـال اللاحقـة، الشـيء ذاتـه جعلـه اللـه للإنسـان، طامعـاً وجشـعاً، ثـم وقـاه مـن الحيوانـات.

الحيوانـات تسـتخدم قوّتهـا وسـرعتها، لاجئـةً فـي قـاع الميـاه، وعاليـاً عنـد الجبـال، وفـي أعمـاق الغابـات؛ كلّ كائـن حَـيّ لديـه الحافـز علـى التكاثـر بغريـزة البقـاء والعنايـة بنشـئه. فـي تخطيـط الأشـياء ونظامهـا لا يتسـاوى الحيـوان بالإنسـان، بـل يجـب أن يـزوّد الحيـوان الإنسـان بالغـذاء، كل هـذا يتجلّـى فـي فضـل اللـه وعدالتـه لنـا.

يجـب ألّا نتوقَّـف عـن التفكيـر بـأن الرحمـة والعدالـة مـن وصايـا الشـريعة. كوننـا مسـلمين ومؤمنيـن باللـه، ألا يعنـي أن نتّبـع وصايـاه دون وهـن؟ هـل نحتـاج مزيـداً مـن الأدلّـة، التـي هـي واضحـة، علـى

عنايـة اللـه واهتمامـه بنـا؟

نريـد أن نـرى عمـل الخيـر مـن النـاس، ولكننـا لا نحمّـل أنفسـنا عبء الاهتمـام بجيراننـا. أليـس ذلـك إثمـاً؟

الـذي يسـمح بالشـرّ، ولا يقاومـه، لا يُعَـدّ مسـلماً. فـي أحـس أحوالـه هـو مسـلم فاتـر، تعـوزه الحماسـة.

أيـن يتجلّـى العلـيّ القديـر؟ كثيـرون منّـا لا يعرفـون. لـم أرَ مسـلماً مسـتغرقاً مفكِّـراً فـي أحاديـث النبـي: يتأمّـل فـي صنـع اللـه أو يتبـع ابتهـال المصلّـي: أحبـب اللـه يحببْـك. أحسـن إلـى النـاس، ذلـك أن اللـه يحـبّ المحسـنين. المؤمـن الـذي ينجـز عملـه مثـواه الجنـة.

القـرآن يزخـر بآيـات تحـثّ علـى الحـبّ والإحسـان وعمـل الخيـر، مـع ذلـك لا أحـد منّـا ينظـر، بعمـق، فـي معنـى تلـك الآيـات؛ تعوزنـا القـدرة والمعرفـة الكافيـة لفهـم هـذه الحقائـق.

«ثمّـة أنـاس يؤمنـون باللـه، ويحسـبون أنفسـهم يكرّسـون عبادتهـم للـه بعمـل الخيـر للآخريـن، فليعلمـوا أن اللـه لا يحـبّ هـؤلاء المعلوليـن».

الإسـلام الـذي أتـى بـه النبـي- عليـه الصـلاة والسـلام- يعلِّمنـا أن «الظالـم لا ضميـر لـه، والـذي لا ضميـر لـه، لا إيمـان لـه»؛ مـن ثَـمّ نحـن نـرى أن الإيمـان لا يأتـي مـن تلقـاء نفسـه، بـل يولـد

من العدل والعمل الصالح، لكن العدل والفضيلة لا تُكْتسبان بالصلاة والعبادة العمياء فقط. وهنا، لابدّ من هذا البرهان: ترى المسلمين متحمِّسين في صلاتهم، وصارمين في صومهم، لكن هذا لا يكفي. الاستقامة هي أمّ العمل الصالح. الضمير والسمعة يأتيان من الاستقامة. رُبَّ امرئٍ يتوقّف ويفكّر مليّاً، ويسأل نفسه: «لماذا أستحسن العمل الصالح وأطريه، بينما لا أشارك فيه؟» ألا يدلّ ذلك على الاستقامة والصدق؟ أليس ذلك بداية العمل الصالح؟، والمرء بالآخرين، أليس تعبيراً عن التعلّق بالخالق؟

الرغبة في عمل الخير تولد مع القدرة على الرضى بالقليل. لا تفقد حسّ الاستقامة، ولاتكلّ من فعل الخير. الإيمان والإنسانية وحبّ الرحمة ليسوا أقلّ من الاستقامة. كما يعلِّمنا الصوفي الهادي أن خطيئة واحدة تولِّد مئاتٍ غيرها.

نتصوّر العليّ القدير، في عقولنا، أنه كلّي العلم والرحمة حقيقةً. لو أن سمات المعرفة والشفقة والاستقامة ظاهرة عندك، هذا يعني أنك باحث عن التعليم، وأنك مسلم حقيقي وموهوب للإنسانية. من الشائع أن الشهامة والنبل يتجسّدان في ثلاث مناقب: الصدق، والنيّة الحسنة، والعقل السليم.

الصدق تجسيد للاستقامة والنيّة الحسنة والرحمة، والعقل- كما نعلم- من سمات المعرفة. هذه السجايا، ولو كانت صغيرة في

المقارنـة، إلا أنهـا خاصّـة بالإنسـان، وهــي عملـه، فلْيكافـح فــي ضبطهـا وفــي أعمـال الخيـر، ويتذكَّرهـا، ويحفظهـا فــي قلبـه. ولا يمكـن تحقيـق ذلـك إلا بالرغبـة الخالصـة، وبالجهـد المتواصـل الـذي لا يـكلّ صاحبـه. يمتلـك النبـي السـجايا الثـلاث السـابقة، وكذلـك الأوليـاء والعلمـاء والمسـلمون الخلّـص؛ تلـك الخصـال مُعَـدّة لخدمـة العلـيّ القديـر، لقـد بشّـر بهـا النبـي، واعتنقهـا الأوليـاء بحـبّ، بـل إن حـبّ الأوليـاء منصـبّ، فقـط، علـى حيـاة الخلـود وراء القبـر. مع ذلـك، فقـد انصرفـوا عـن لهـو الدنيـا ومباهجهـا. علـى كلّ حـال، العلمـاء يفكّـرون بالحيـاة فـي هـذه الدنيـا، ومهتمّـون بهـا. أحـكام الأوليـاء والعلمـاء متعارضـة، ولـو أنهـم ليسـوا بعيديـن فـي نظرتهـم، وكلّ منهـم يدعـم تعاليـم اللـه. ولكـن، أليسـت كلّ مجادلـة تنتهـي برضـى متبـادَل؟

مثـل طبيعـة الإنسـان، المعرفـة والعقـل، يسـند أحدهمـا الآخـر مـن دون عنـف. إنهمـا ينفـران مـن الازدواجيـة، إنهمـا يعلّمِاننـا الرحمـة والصـدق وعمـل الخيـر، ومـا شـابه ذلـك، يعلّمِاننـا الشـفقة.

أعتقـد أن الأوليـاء والعلمـاء يبحثـون عـن اليقيـن بالشـكّ، فقـط، لإرضـاء غرورهـم. قـد يختـار البشـر المذاهـب التـي يحـثّ أصحابهـا، عـن طريـق الوعـظ الروحـي، علـى التشـدُّد الصـارم والتواضـع الكامـل اللذيـن مَـنْ شـأنهما أن يذهبـا بالعالـم إلـى الخـراب والفسـاد. آنئـذ،

مـن يرعـي القطعـان، ويصـدّ الأعـداء، ويحيـك الملابـس، ويبـذر القمـح، وينتـزع الثـروة مـن أحشـاء الأرض؟ ألا يعنـي ذلـك أننـا نتعـرّض، بسـلوكنا الفـظّ والجاحـد هـذا، للخطـر، وذلـك بإنكارنـا للخيـرات الممنوحـة لنـا مـن العلـيّ القديـر؟

هـؤلاء الذيـن اختـاروا هـذا الطريـق، ربَّمـا يكونـون محكوميـن بالـزوال، أو يكونـون فريسـة سـهلة للكفّـار، والضعـف داخلهـم يتركهـم فـي طريـق الخـزي. إن كان هـذا الطريـق مقـدّراً لنصـف المسـلمين، فهنـا ينشـأ هـذا السـؤال: هـل ثمّـة- بالمقابـل- شـيء يصـحّ للنصـف الآخـر، مثـل الحقيقـة؟ يجـب أن تكـون الحقيقـة لـكلّ إنسـان. هـل ثمـة انتقـاء فـي الحقيقـة، أو انتقـاء فـي الاسـتقامة؟ إن كان ذلـك كذلـك، فليـس ثمـة حيـاة للنـاس مطلقـاً. بالنسبة إلـى الحيـاة، الأهـمّ هـو المطلـق، ليـس ثمّـة كمـال بـدون الحيـاة. عندهـا، كلّ الأوليـاء لـن يـزدروا الأعمـال الخيّـرة فـي العالـم. نعـرف أنـه ثمّـة ثلاثـة مـن أقـرب أنصـار النبـي إليـه، وهـم مشـهورون بثرائهـم: عثمـان، وعبدالرحمن بن عـوف، وسـعد بـن أبـي وقّـاص. لعلنـا نفسّـر صرامـة تقشُّـف الأوليـاء بنقـص إيمانهـم بمقدرتهـم، بخشـيتهم اللـه مـن مغريـات متـاع الدنيـا ولهوهـا، أو- ربَّمـا- هـم، بنكرانهـم لذواتهـم، إنمـا يقدّمـون المثـال لثَنْـي النـاس عـن الجشـع، والتخلّـي عـن هـوى الشـيطان وعـن حـبّ الـذات، أو اختيـار صـراط الحـبّ والإحسـان! إذا كان كلّ ذلـك لحـثّ النـاس علـى الحـبّ فحسـب، فـإن تضحيتهـم غيـر مبـرَّرة، هـذا النهـج

خطأ وخطير.

فقط، الأشخاص الذين يلتزمون بالإيمان المطلق، والذين يتمتّعون بروح قويّة، والذين يتوافرون على معرفة كبيرة، ويمتلكون إرادة صلبة، يرون ضوء الحقيقة. من المستحيل- تقريباً- أن تجد هذه الخصال عند شخص واحد، أو إنهم بإحرازهم المزعوم لتلك الخصال، ربّما يتحوّلون إلى خُبثاء أو مشعوذين أو أفّاكين.

الرغبة في أن يميِّز المرء نفسه أو يتعالى عن الجميع تفسد طبيعته الإنسانية. الإنسان الجهول الذي يسلك مذهب التشدد زاعماً أنها معرفة، إنما هو، بتلك الوسيلة، يعترف بفجوره. المفكّر والعالم ينتهجان السبيل نفسه، ولكن، بطريقة أخرى، للمعرفة.

المعرفة المادّية عن العالم إنما تنتقل إلينا عن قاعدة سلوكية أخلاقية، المعلِّمون لهذه القاعدة ندعوهم علماء.

ليس ثمّة خلق دون سبب. ربّما يكون العلماء ممسوسين بتوقهم لسبر أغوار كينونة الله، التي هي غير محرّمة على أحد، أو- ربّما- يسعون إلى المطلق في حبّ الله! إلا أنه من المناسب الحديث عن مثل هذا الحبّ إذا كان المرء تعوزه معرفة الله، مع ذلك فإن الحبّ نتاج المعرفة الواضحة، والإيمان المطلق، والحسّ الأخلاقي بالعرفان تجاه الله؛ لأنه خلق الإنسان بكثير

من الحبّ، ومنحه القدرة على الحبّ والرحمة، هذا، فقط، ما نسمّيه الحبّ الخالص للعليّ القدير.

فقط، هؤلاء الباحثون عن معرفة الله، المتنوِّرون، والذين ينظرون إلى السبب أو (المسبّب) الأوَّل، إلى ظاهرة الأشياء المدركة، هؤلاء هم الذين يستحقّون لقب (علماء).

إنهم يبحثون عن الحقيقة والاستقامة، والصلاح للإنسانية، ذلك أنه ليس ثمّة متعة تساوي متعة بحثهم هذا، ليس ثمّة مثل هؤلاء المفكِّرين ممّن يسلكون الطريق الصحيح. العالم بأسره يتّجه إلى الدمار والخراب. هؤلاء العلماء الخلّص هم العمود الفقري لكلّ أعمال الإنسانية: يضعون أفكارهم في خدمة كلّ شيء على الأرض، نشاطهم موجّه لحياة أفضل؛ ذلك- كما يقال- أن الحياة الدنيا هي الفلاح من أجل الحياة الآخرة.

ليس كل عالم حكيماً، لكنّ كلَّ حكيم هو عالم.

الإيمان التقليدي يُكتسب بمساعدة من التعليم الأخلاقي للعقول المثقّفة، غير أن التنوير الذي يأتي من الحكيم يتحوّل إلى إيمان صادق. هذا يتحقّق عن طريق الحكماء الذين فهموا المعنى السامي للإسلام، طلّاب المعرفة الدنيوية، على كلٍّ، لا يعرفون مبادئ الدين، بالرغم من نجاحهم، في أثناء بحثهم عن الحقيقة،

في فكّ ألغاز الكون وظهور الإنسان. فيما يتعلّق بالشروط السبعة للشريعة هم قادرون على إدراك الله فقط، إلا أنهم لا يمكنهم إخبار عباد الله عن أعداء الله. رغم أنهم لا يمكن أن يكونوا رُعاتنا الروحيين، إلّا أنهم يستحقّون عرفاننا لهم بالجميل، أو- كما قال النبي في الحديث الشريف- : خير الناس أنفعهم الناس». هؤلاء الرجال لا يعرفون النوم أو الاستكانة أو اللهو؛ إنهم يثابرون على اكتشاف كل ما يفيد الإنسانية دون تعب أو كلل. لقد أعطوا للإنسانية الكهرباء، ومكّنوا الإنسان من الاتّصال بأخيه الإنسان عبر مسافات هائلة، لقد أخضعوا الماء والنار لإنجاز أعمال ضخمة لا يقدر عليها آلاف الرجال. إنهم يحسنون توظيف العقل البشري، لقد علمونا التمييز مابين الخير والشر، ونحن- بالتأكيد- مدينون لهم بكثير من الأشياء.

في وقتنا الحاضر، الملالي يقفون ضدّ تعليم الناس، والحقيقة: هم يعلمون- أيضاً- أن جهل رجال الدين أو نواياهم السيِّئة تكمن في قولهم إن الإنسان ميّال بطبعه إلى الخطيئة. العديد من تلاميذهم تعلّم بعض الصلوات، بالعربية أو بالفارسية، ويرون أنفسهم قادرين على الدخول في نقاش وجدال، بكبرياء كاملة؛ بدلاً من العمل الصالح، يسيئون للناس، ويقودونهم إلى الضلال بلجوئهم إلى الصخب والتبجّح الفارغ. بعضهم يسيء، ليس عن نيّة خبيثة، بل امتثالاً لغريزة طبيعية. إنه لَمِن دواعي السرور أن

نـرى بعضـاً منهـم يلتفتـون إلـى حكمـة النصيحـة بالعـودة إلـى ثنايـا الضميـر لديهـم، لكـن، هـل تقولـون عـن شـخص يعيـق الحقيقـة إنـه صاحـب ضميـر؟ الغـرور يفسـد إدراك المـرء. إن كانـت الحقيقـة مازالـت تدعـى الحقيقـة، والحقيقـة هـي اللـه، فيَحسُـن بالمـرء ألّا يعارضهـا، وليحـاول تفهُّـم ذلـك جيـداً؛ ذلـك أن الضـلال يقـود إلـى مخاطـر النفـور مـن الديـن.

يقـول اللـه تعالـى، فـي كتابـه العزيـز: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّـكَ كَأَلْـفِ سَـنَةٍ مِمَّـا تَعُـدُّونَ» (سـورة الحـج) والسـؤال: كـم مـن المصلّيـن سـيكونون هنـاك ذاك اليـوم؟ العالمـون سـيعرفون ذاك اليـوم.

ألا تدلّنـا أحاديـث النبـي علـى أن شـريعة الديـن ومبادئـه سـتتغيّر إلـى شـكل آخـر، مـع الزمـن؟

فـي الزمـن الحاضـر، تعليـم المـدارس ميئـوس منـه، وهـو خـارج الزمـن؛ ممـا يـدلّ، لا علـى عقمهـا فحسـب، بـل علـى أذاهـا أيضـاً. وفقـاً لذلـك، فُتحـت مـدارس جديـدة فـي تركيـا فـي مـوازاة اللاهـوت والعسـكرة وعلـوم أخـرى، شـبابنا أنفقـوا سـنوات عديـدة فـي حفـظ فـارغ، عـن ظهـر قلـب، فـي المـدارس، ليصبحـوا جهلـة، وغيـر عقلانييـن، وعاجزيـن عـن العمـل، وسيعيشـون عـن طريـق الحيلـة والخـداع. تعاليـم الملالـي لا تجلـب غيـر الألـم.

جمـال الكـون المخلـوق يعظّـم العقـل البشـري. يحـدث أن يجـد المـرء نفسـه فـي عَـوَز وحاجـة، سـيفقد طبيعتـه الإنسـانية ويتحـوّل إلـى حيـوان. ليسـت لديـه الرغبـة فـي فهـم العلـوم وفـي التعلّـم، هـذه الجهالـة يدينهـا القـرآن. ثمّـة عالَـم مـن الاختـلاف بيـن الثـروة التـي تقـود إلـى القـوّة، وبيـن تكديسـها؛ قصـدَ تلبيـة الحاجـة، دون اللجـوء إلـى الآخريـن. يجـب ألّا نبحـث عـن المعرفـة قصـدَ الربـح، يجـب توظيفهـا لكسـب المعرفـة. الفـنّ كنـز لا ينضـب، وليـس ثمّـة أنبـل مِـن تعلُّمـه، يجـب أن تكـون المعرفـة فـي خدمـة الاسـتقامة وتكييفهـا بمـا يتطلّبـه نامـوس الديـن. يجـب علـى المـرء أن يُكْبـر أعمـال الآخريـن الخيّـرة، بـل يعمـل هـو نفسـه الخيـر.

بالنسـبة إلـى أقـوال الملالـي، أودّ أن أحذركـم مـن هـؤلاء، أصحـاب المرتبـة الدينيـة الدنيـا: تعاليمهـم زائفـة ومحفوفـة بالمخاطـر. الكثيـر منهـم جهلـة، ولا يفقهـون شـيئاً فـي الشـريعة، رغـم اختيارهـم هـذا الطريـق. إنهـم يحاولـون تعليـم الآخريـن، فـي حقـد، القليـل مـن معرفتهـم، تعاليمهـم الدينيـة المضللـة لا تضـرّ فحسـب، إنمـا هـي زائفـة. إنهـم يجـدون مـن يسـاندهم مـن الأغبيـاء، وكلامهـم مزيَّـف؛ علاماتهـم فـي التعليـم صلـوات مصحوبـة بسـبحة، وعمامـة، ولا شـيء غيـر ذلـك.

أطفالـي الأعـزّاء، يجـب أن تعرفـوا أن الطريـق إلـى اللـه غيـر نهائـي،

وليس مقصوراً على أحد. الذي يعزم على اتّباع هذا الطريق يُعَدّ مسلماً حقيقياً. ولكن، إن كان غرضك هو كسب الثروة فاعلم أن هذه العقلية الضيّقة لا تقود إلى الله. إذا عزمت على مشاركة الآخرين مالك وقطعانك وتعليمك وأشياء أخرى خيّرة، فأنت في طريق الصواب نحو العليّ القدير، الطريق الذي لا نهاية له.

هؤلاء الذين اختاروا هذا الطريق يُعَدّون عباداً صالحين، الطريق الذي ليس ثمة ما هو أفضل منه، مقارنةً ببعض الناس، ممّن همّهم إظهار أنفسهم، بعنايتهم بملابسهم وطريقة مشيهم، يعدّون أفعالهم هذه جديرة بالثناء، مثل هؤلاء توّاقون للتباهي، كما لو أنهم في سوق، مثيرون حسد البلهاء الذين تكمن عقولهم في عيونهم. انظر إليهم: بعضهم تأكله الغيرة حسداً، في حين يحاول آخرون تقليدهم. من يكسب من هذا كلّه؟ كم من الجهد ينفقه هؤلاء لمجرّد التأثير في الآخرين، بمظهرهم؟ غير أن فضيلة المرء لا تكمن في مظهره، بل في جوهر روحه؛ ذلك أن الله يميِّز الناس بهذه المنقبة. هل هؤلاء المتعصِّبون يضيفون مثقال ذَرّة إلى عقولهم؟ العقل البشري يتحسَّن إلى ما لا نهاية، ولا يكلّ من حبّ الخير والعمل الصالح.

خلق الله الكون ببراعة مطلقة، ليستطيع النموّ والتجدُّد. من واجبنا المقدَّس أن ننمّي عدد أصدقائنا؛ وهذا يتوقَّف على عملنا

الصالح وطيبة القلب بيننا، شيء يستدعي الاستجابة للودّ- على الأقلّ- لا تأمُّل الشر عند الآخرين، أن لا تلوكهم بكلماتك أو أفعالك. في هذا السبيل ثمّة عدّة طرق لتهذيب النفس: أولاً، صون شرف المرء حتى في أعظم المحن. ثانياً، إطراؤك لنفسك والثناء على أعمالك الخيّرة، فقط، هو ما يؤذيك. ثالثاً، الحقد يُفسد احترام الآخرين، ويسبّب الإذلال الذي يولّد الحقد. التفاخر المتكرِّر، له عواقب وخيمة، ومن شأنه إثارة الحسد، والحسد يعقبه مزيد من الحسد. انعدام هذه الرذائل يجلب السكينة إلى روح المرء، والنفس التي تنعم بالسلام، يبدأ الطموح عندها بالنشوء. ثمّة ثلاثة أشياء من شأنها جلب الخزي للجنس البشري، أشياء يجب أن تتجنَّبها، هي: الجهل، والكسل، والشرّ.

الجهل، الذي هو نقص في المعرفة. في غياب المعرفة لا يمكن تحقيق شيء؛ فنقص المعرفة يجعل الإنسان لا يختلف عن الحيوان. الكسل أسوأ أعداء الفنون. عدم المقدرة وفقدان إرادة القوّة والوقاحة والفقر، كلّ هذا وليد الكسل.

الضعف عدوّ للإنسان: بفعلك الشرّ للآخرين، تبعد نفسك عن جنسك، وتصبح مثل الحيوانات الجامحة.

الترياق لهذه الرذائل هو في حبّ الناس، والرغبة في العمل الصالح، وثبات الروح، والحصافة، والحكمة، وسعة المعرفة.

وجّهْ كلّ معرفتك باتّجاه صراط الحقّ (عزّ وجلّ)، الذي لم يبخل في خلق التوافق المحكم للكون، أنت- أيضاً- يجب أن تحمل على عاتقك مزيداً من العمل المثمر، بقصد خلّاق.

كل ماخلقه الله له هدفه؛ فاكهة عملك في صنع الخير للناس، أما غير ذلك فهو هراء، وإيمانك لا طائل من ورائه. ثمّة فكرة شائعة تقول إن خلق الله لم يوجدوا دون متاعب، وليس ثمة شيء دون هدف. كل شيء له قصد، وهدف، وسبب. يجب على المرء التوّاق إلى المعرفة أن يضع نصب عينيه أن عمله يجب أن يكون من أجل هدف.

النبيّ- عليه صلوات الله- ترك لنا هذا الحديث: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى». الآن: أنت تتهيّأ للوضوء من أجل الصلاة، وعزمت على الصوم. هذا جيد، أليس من الإثم أن تهتمّ بالمظهر الخارجي، فقط، في تقيّدك بالطقوس؟ إن كانت روحك طاهرة فستنعكس هذه الطقوس على حياتك، المحافظة على المظاهر الخارجية فعل حسن، لأنه يزيد من عظمة إيمانك. أليس، لهذا السبب، قال الحكماء إنه ليس ثمة إلا إيمان واحد، مبجّل بطول الأناة، وبدون هذا التقيُّد قد تلطّخ إيمانك وتحكم عليه بالهلاك. يقال: مخَافةَ الجهل، يُهتَمّ بالطقوس الخارجية وحدها. في هذه الحالة، هل ننسى الهدف الأسمى، وهو

الإيمـان؟ الاقتنـاع بـأن جهـل المـرء بالفـرق بيـن الطقـوس الخارجيـة والطقـوس الداخليـة، والالتـزام، فقـط، بالطقـوس الخارجيـة يجعـل المـرء مسـلماً، هـو كلام غيـر مقنـع.

قـد تكـون الطقـوس أداة تنبيـه للإيمـان، لكـن الأهـمّ أنـه لا يعفـي مـن أداء المهمّـة الأثيرة.

كيف يكون الإيمان دون اليقظة الثابتة؟

أليسـت حمايـة الإيمـان وصونـه ورعايتـه كونـه الجوهـر النفسـي، (حمايتـه نقّيـاً وسـليماً) هـي الهـدف الأسـمى؟

أنـت، يامـن تتعامـى عـن المعنـى العميـق لعمـل الشـعائر، وإيماءاتهـا، انتبـه! ثمّـة جـزء أساسـي جـدّاً فـي الصـلاة؛ ذلـك أنـه، قبـل شـروعك فـي الصـلاة، يجـب أن تتوضّـأ. هـذا بعـد أن تُفـرغ مـن بدنـك القـاذورات. تذكَّـر ذلـك! فـي نهايـة الوضـوء يجـب أن تمسـح بيديـك المبتلَّتيـن علـى قدميـك: بعـض هـذه الشـعائر ذات مغـزًى رمـزي.

بعـد الاسـتفراغ، تتوضّـأ بغسـلك الأطـراف المرئيـة للآخريـن. هـذا- بالتأكيـد- ليـس مهمّـاً للغربـاء، لكـن هـذه الأفعـال توضِّـح للنـاس أن روحـك طاهـرة، وأن ظاهـرك مطابـق لباطنـك. فـي حالـة هـذه الطهـارة الكاملـة وسـلامة العقـل، تواصـل صلاتـك. الصـلاة هـي تعويـذة، المسـح بأصابعـك المبلولـة علـى وجهـك وقدميـك يعنـي أن روحـك

طاهـرة.

أن تبـدأ صلاتـك، وتكبِّـر برفـع يديـك حتـى أذنيـك، ليـس معنـاه أنـك تتحـدّى اللـه، عَـزّ وجَـلّ: هـذه الحركـة لتشـهد بـأن لا إلـه إلا اللـه. وهـي دليـل لحماسـك فـي التضـرع لـه عَـزّ وجَـلّ: «أسـتعين بـك مـن الباطـل».

ركوعـك، ليـس معنـاه انحنـاء العبـد للحاكـم، ليـس كمـا يفعـل رجـل مـن العامّـة أمـام الملـك. بـل أنـت تتوجّـه إلـى القِبلـة لأنهـا بيـت اللـه سـبحانه، وليـس ثمّـة، علـى الأرض، أكثـر مقامـاً للـه- سـبحانه- مـن القبلـة، بأمـل أن يسـتجيب اللـه العلـيّ القديـر.

أن تبـدأ بالفاتحـة فـي صلاتـك، لهـا المغـزى الكبيـر. وركوعـك مسـتنداً علـى ركبتيـك إشـارة علـى أن المسـلم يظهـر تضرُّعـه للـه.

أوّل سـجودك، عندمـا تلمـس بجبهتـك الأرض، دلالـة علـى أن الإنسـان مـن تـراب، والسـجدة الثانيـة تعنـي: وللتـراب نعـود. رفعـك لوجهـك إلـى السـماء إشـارة إلـى النشـور بعـد المـوت.

تنهـي صلاتـك بالسـلام علـى اللـه عـز وجـل، ووتتمنّـى السـلام والوحـدة والازدهـار للمسـلمين.

الآن، ماذا تعلَّمنا من هذا القول؟

39

نعـم، أسـلافنا كانـوا أقـلّ شـأناً، بالنسـبة إلـى الجيـل الحاضـر، فـي الكياسـة والبراعـة وحسـن التدبيـر. مع ذلـك كانـوا يملكـون فضيلتيـن لا نملكهمـا نحـن، وتناسـيناهما بفعـل الزمـن. هـل لدينـا العـزم علـى بـذل أقصـى جهـد للحفـاظ علـى تلـك الفضائـل القديمـة، إلـى جـوار اكتسـاب مزايـا وصفـات جديـدة؟ يجـب أن نكـون مسـاوين لباقـي الأمـم، لكـن، عندمـا تنقصنـا العزيمـة والاسـتعداد الشـخصي، فإننـا، بذلـك، نعطـي مجـالاً للصفـات الشـيطانية، أكثـر مـن الصفـات الإنسـانية، فـي بلـورة أنفسـنا. هـذه واحـدة مـن الأسـباب التـي نفتقدهـا عندنـا. مـا تلـك الفضائـل؟

فـي الأزمنـة القديمـة، كان ثمّـة مـا يُعـرف (زعيـم القبيلـة) وحكيـم القبيلـة أو الأقـدم فـي القبيلـة، كان هـؤلاء يفضّـون المنازعـات، ويضبطـون مسـار المجتمـع، النـاس يديـرون شـؤونهم، بطريقـة أو بأخـرى، لا يطعنـون فـي أحكامهـم، أو يسـعون بالشـكوى بيـن هـذا

وذاك، من أصحاب المقام الرفيع. نقول: «ضع العصا، في يدك وأنت تستعدّ للنقاش»، أو «إذا احتكم كل شخص بنفسه لنفسه فلن يعيش الناس معاً، حتى في أرض لا حدود لها، عندما يكون للمجتمع زعيم فلن يحترق أحد، حتى مع وجود النار». بالتسليم بهذه الحقيقة تهتدي الأنفس، بصلاتها، إلى ربّها. الإجماع على المنتخَب من الجميع وتأييده في ما تعهَّد به للناس يفرضان عليه التحلّي بالصفات الفاضلة؛ فهو بذلك يكسب احترام الناس، ويجعلهم ينتبهون إلى كلامه ويطيعونه، دون تقصير، حتى ذوو السلطة لا ينتهكون الالتزام المعمَّم على الجميع. كيف يفشل مجتمع يتحلّى بهذه الصفات، والجميع أخوة، والثروة في متناول اليد؟

نقطة أخرى: قومنا يعتزّون بالوحدة، لأنها قدس الأقداس، إذا احتاج أحد المساعدة يستحضر أسماء الأسلاف، فيهبّ لنجدته الجميع متناسين خلافاتهم في سبيل تقديم يد العون، مستعدّين للتضحيات والتنازلات، أو- كما يقول الناس-: «الذي لا يغفر خطيئة جاره سيتأذّى من الغريب». «قد يتشاجر الأخوة، لكن، لا يتخلّى أحدهم عن الآخر». (لو تنازع ستّة أشخاص فسيفقدون ما في أيديهم، لكن، إن اتّفق أربعة فستحلّ بينهم رحمة الله». «الذي يسعى في الطريق الصحيح سيجد الكنوز، لكن الذي يسعى وراء المشاكل لن يظفر بغير البلاء».

أين الروح النبيلة للمجتمع؟، وأين الحرص على الشرف؟

كان ثمة من يسوّغون إراقة الدم، بضمير حَيّ وشجاعة. أين هم الآن، حيث الصداقة لا علاقة لها بالودّ، بل بخيانة الأمانة والغدر.

ليس حبّاً في الحقيقة تنشأ العداوة، بل بسبب العجز عن العيش بسلام.

40

أيها السادة المحترمون، هذا ما أودّ أن أسألكم إياه:

كيف يتأتّى ألّا نتحدَّث، بكآبة، عن الموت، في حين لا تجد أحداً جديراً بالحياة بين الأحياء؟

لماذا الشجار بين الأجيال الأقدم والأجيال الأحدث، ومع معاصريهم، أيضاً؟

إن حدث أن سافر أحدنا إلى أماكن أجنبية، فإننا نبدأ في إظهار الحبّ له كأخ، وعندما يعود نُكرهه على اجتنابنا، لماذا؟

لماذا نرى بعض الناس يُطرون رجلاً خيِّراً من قبيلة أخرى، ويضعون أنفسهم في خدمته، في حين يتجاهلون رجلاً خيِّراً من قومهم، ولو بَزَّ الغريب في الحكمة والنبل؟

حين نكون في أرض غريبة نشيد بقريتنا، ونعلي من شأنها إلى

السموات العليـا، وعنـد عودتنـا إليهـا نشـيد بـالأرض الغريبـة. كيـف هـذا؟

لمـاذا يظهـر الآبـاء حبّـاً لأبنائهـم وعنايـة بهـم، وهـم أطفـال، ولكـن، تبـرد هـذه العاطفـة عندمـا يكبـرون؟

لمــاذا نجـد صعوبـة فـي جمـع أقاربنـا فـي فـرح أو تـرح، ولكــن، يكونــون جســداً واحــداً فــي أوّل هَبّــة للسـرقة أو لقطـع الطريــق؟

لماذا يغتاظ قريبك إن كسب جوادك السباق؟

فـي الأيـام الخوالـي، كان النـاس يذكـرون، بخيـر، وإلـى آخـر أيامهـم، صنيـع شـخص، ولـو كان العمـل لمـرّة واحـدة فقـط. لكـن، الآن، سـرعان مـا ينسـى النـاس الأعمـال الخيِّـرة. لمـاذا؟

لمـاذا لا يخجـل ابـن البـيّ مـن السـرقة إن جَنَـت عليـه الأيـام، ولكنـه يعدّهـا خزيـاً إن خـدم (بـيْ) آخـر؟

لمـاذا لا يقـدر اثنـان مـن الرجـال الجيديـن ومـن العائلـة نفسـها علـى إقامـة مصادقـة فيمـا بينهـم، فـي حيـن تجمـع الصداقـة اثنيـن مـن الأوغـاد؟

لمـاذا ينقلـب عليـك صديـق، منحْتَـه جـواداً مطهَّمـاً، بمجـرّد حصولـه علـى مُهـرْ مـن عـدوّ لـك؟

لماذا لا يقدِّر المرء صداقة مستمرّة ومثالية مع آخر، ويكون على استعداد أن يرضخ لعدوّ قَدَّمَ له خدمة سابقة؟

لماذا لا يتمنّى الكثيرون منّا الخير للأصدقاء، وإذا ضحك الحظّ لواحد من صديقين يصبحان ألدَّ الأعداء؟

لماذا يبحث الناس عن شخص ينصحهم، في حين يتجنّبون من يعرفون أنه النصوح، ويعرفهم؟

لماذا يتصرّف بعض الضيوف وكأنهم جلبوا معهم كلّ ماشيتهم، ولكن، عندما تكون أنت ضيفهم يتظاهرون بأن ماشيتك ليست معك؟

يتوق الناس إلى السلام والسكينة، لكن، سرعان ما يسأمونها، لماذا يحدث هذا على الأرض؟

لماذا يُحكَم شعبنا من قِبَل الأذكياء؟ ولماذا هم فقراء في الحكم؟

لماذا تكون الزوجات الجديدات سليطات؟ لماذا الأنذال وقحون؟ لماذا بعض الفقراء مغرورون؟

لماذا يرى الناسُ من يعيش في سلام، ويضبط نفسه، ضعيفاً، في حين يرون المفسد والمتبجِّح جريئاً وشجاعاً؟

لمـاذا الـكازاخ لا يصغـون إلـى الأقـوال الصالحـة، وليـس لديهـم وقـت لهـا، فـي حيـن هـم على استعداد أن يسمعوا كلّ أنـواع القيـل والقـال، مـن قـذارة وقـذف، ولا يعرضـون عنهـا حتـى يسـمعوها إلـى آخرهـا، حتـى لـو كان ذلـك على حسـاب تدهـور شـؤونهم فـي تـرك الأقـوال الصالحـة، مـن أجـل سـماع تلـك القـاذورات؟

41

أيّ شـخص يخطِّـط لتعليـم الـكازاخ وإصلاحهـم يجـب أن يملـك ميزتيـن:

فـي الأولـى، يجـب عليـه استخدام القـوّة القصـوى والنفـوذ الكبيـر لتمكينـه مـن إثـارة الخـوف لـدى البالغيـن، لجعلهـم يرسـلون أبناءهـم إلـى المدرسـة لتعلُّـم صنـوف المعرفـة، مـع تحمُّلهـم النفقـات. ويكفـي البنـات تعلُّـم دينهـم الإسـلامي، علـى الأقـل كـي يصـرن قويّـات فـي دينهـم. فـي هـذه الحالـة، عندمـا يشـيخ الوالـدان يكـون الجيـل الجديـد قـد نهـج الطريـق القويـم.

وفـي الثانيـة، يجـب أن يملـك ثـروة ضخمـة، كـي يرشـو الآبـاء، مـن أجـل إرسـال أبنائهـم إلـى المدرسـة، كمـا أسـلفنا.

فـي هـذه الأيـام، ليـس ثمّـة مـن يمتلـك تلـك القـوّة المخيفـة، أو مـا يكفـي مـن الثـروة، حتـى يكسـب المبتغـى مـن الآبـاء.

إنه من المستحيل حثّ الكازاخي على شيء أو إقناعه بشيء، إلا إذا أَخَفْته أو رَشَوْته.

لقد ورث الجهل عن أسلافه، وتشرَّبه مع حليب أمّه، فضرب نخاعه، وقتل كلّ معنى للإنسانية لديه، مثل هؤلاء، عندما يجتمعون لا يمكنهم فعل شيء غير التكشيرات الغريبة والتصنُّع في السلوك، يهمسون، ويتفوّهون بتلميحات غامضة. حتى عندما يفكّرون لا يركِّزون على فكرة محدّدة، وإذا كلّمتهم لا ينتبهون إليك، بل يحدِّقون، هنا وهناك.

أفكارهم مشتّتة.

كيف نعيش؟

كيف سنصبح؟

42

الكسل أحد الأسباب التي تقود الناس إلى الرذيلة. إذا اشتغل الكازاخي في الأرض، أو اقتحم التجارة، هل يعيش حياة التفاهة؟ إنه بدل ذلك، يمتطي جواداً استلفه من أحد ما، ويتنقل من قرية إلى أخرى ناشراً الإشاعات والقيل والقال بمكر ونفاق، يقود الناس إلى الضلال، أو يقع هو نفسه تحت سطوة الأوغاد، ينجرف معهم ولا يفعل شيئاً. لكن، من يريد أن يعيش بشكل جيد، وقد أمعن النظر في مثل هذه الحياة المهينة، هل يتخلّى عن ذلك، ويعيش حياة الذلّ، دون هدف أو غاية؟

من يخطِّط لكسب، ولو قطيع صغير من الماشية، فلن يقتنع بحياته هذه، ولن يعتني بقطيعه الصغير. سيطارد الملذّات تاركاً قطيعه لأحد الرعاة أو الأطفال؛ ومن ثَمَّ يصبح قطيعه غنيمة لكلّ أنواع اللصوص والنُهّاب، وسيموت في حالة مزرية. المرء منهم سيخسر أكثر من ذلك، ولن يتغلَّب على إغراء المكائد السرّية وتفاهة

القيـل والقـال والمشـاجرات. لـن تكـون لـه أهمّيّـة فـي المجتمـع، وسـيتورّط فـي كلّ أنـواع الفحـش والخـداع والحِيَـل القـذرة.

آخـرون، ممـن لديهـم بعـض النفـوذ، يتركـون ممتلكاتهـم- أيضـاً- للغربـاء. (احـمِ هـذه الممتلـكات). يسـلِّمون أنفسـهم إلـى اللغـو، ويطوفـون مسـتجدين، فـي كل مـكان.

اليـوم، النـاس لا يقـدّرون قيمـة الفطنـة والسـمعة الحسـنة، بـل مـن لديـه القـدرة علـى خربشـة الشـكاوى واللـفّ والـدوران علـى شـخص مـا، هـذا هـو مَـنْ يُحتَـرم. مـن ينجـح فـي ذلـك، ربَّمـا يكـون فقيـراً ومعـدم التفكيـر، وهـو مـع ذلـك يُمنَـح منزلـة مـن الاحتـرام، ويكـون لـه شأن. وتُقـدَّم لـه القطعـة الدسـمة من اللحـم، وجـواد قـويّ، مثـل هـذا الوغـد يكسـب، بسـهولة، وبقليـل مـن التملُّـق، حظـوة (بـيْ) بسـيط،: «كلمـة واحـدة منـك، وسـأدخل وسـط النـار مـن أجلـك» وهـذا يكـون كافيـاً دون أن يطلـب الحصـول علـى طعـام شـهي وملابـس لائقـة، وأن يمتطـي جـواداً رائعـاً، ويتمـتّع بالاحتـرام.

البـيّ لا يأسـف علـى خسـرانه السـلام ولا تبعاتـه، قبـل أن يتحـدّث إلـى أي شـخص، هـو يبحـث عـن النصيحـة مـن هـذا المحتـال الـذي يذعـن خوفـاً مـن خسـرانه ثقـة البـيّ، إن هـو سـأل نُصّاحـاً آخريـن. «ليكـن اللـه معـك»، سـيقول المحتـال بخنـوع، «كيـف تفكِّـر فـي هـذا الأمـر البسـيط؟»، ثـم يذهـب لاقتـراح حِيَـل؛ واحـدة أسـوأ مـن

الأخـرى، ويغـرز الشـكّ عنـد النـاس وعنـد البـيّ.

فـي نهايـة المطـاف، البـيّ نفسـه لا يعـود محـلّ ثقـة مـن النـاس، إذا اختلـف أحـد الفطنـاء مع البـيّ سـيظهر الوغـد فـي هـذه الأثنـاء: «أتـرى؟ ألـم أحـذِّرك منهـم؟»، ليصبـح هـذا البـيّ السـادج عجينـة فـي يديـه.

بهذا الشكل، يكرِّس الجيل الحالي فكره، وبهذه الطريقة يعيش.

43

وُهِـب الإنسـان الجسـد والـروح. يجـب علـى المـرء أن يعـرف الخـواص الفطريـة، وتلـك المكتسـبة بالكـدّ والممارسـة.

الحاجـة إلـى المـأكل والمشـرب والنـوم غرائـز طبيعيـة. الرغبـة فـي التعلُّـم تأتـي ضمـن الغريـزة الطبيعيـة أيضـاً، لكـنّ الفطنـة والتعلُّـم يأتيـان مـن خـلال العمـل؛ فبالاستماع، وبالنظـر، وباللمس باليديـن، وبالتـذوُّق باللسـان، وبالتنشُّـق بالأنـف، يبلـور المـرء فكـره عـن العالم.

الشعور أو الإحساس بالسعادة أو اليـأس يُستقبَل مـن خـلال خمس حـواس، ويوجّـه عقـل الإنسـان وفقـاً لمـا يـراه ومـا يقدِّمـه، فـي صـور محدَّدة.

رضـاك عـن الحسـن، ورفضـك للسيِّئ أمـران طبيعيـان فـي الإنسـان. فـي البدايـة تكـون الصـور ضعيفـة، وعلـى المـرء أن يسـعى فـي تطويـر هـذه المعطيـات؛ بـدون عنايـة واهتمـام مناسـبَيْن يذبـل المـرء،

ويصبح عقيماً، أو يموت.

الإنسان الذي يمعن النظر، ويستمع جيِّداً يحيط بمعرفة واسعة عن العالم، ويكسب الكثير: سيكون قادراً على التفكير النيّر، ويميّز بين المفيد والضارّ.

الشخص الذي يحلِّل الحقائق والأحداث هو متَّقد الذهن.

الجهول الذي لا يستخدم عقله، وغير معتاد على العمل يلقي بتفاهته على الله: «ما عساني أفعل إن لم يمنحني الله عقلاً؟» أو «الله لم يخلقنا سواسية». هكذا يبرِّر موقفه. لكن، أليس الله هو الذي ميّزه بالسمع والبصر، ليتذكر ما سمعه وما شاهده؟ هل قال الله له: كل ملء بطنك، وتمتّع بالملذّات، واكتفِ بالتفاخر، وتحوَّل إلى حيوان، وافقدْ كلّ الثروات الروحية؟

سيجادل البعض: «حسناً، العقل النيّر يأتي مع الوقت، لكن الطموح هبة طبيعية، الذي يزخر بقابلية واستعداد للخير هو ذو عقل جيّد. الذين يفتقرون إلى الموهبة هم أغبياء، على أيّة حال»، مع ذلك، هذا خطأ، أيضاً.

في الحقيقة، الأطفال لديهم طموح، وهذا مؤكَّد، كما قلنا للتو: الموهبة والفكرة تكونان ضعيفتين في البداية، لكن، ألا رعيتهما وحَسّنتهما؟ حتى مهارة الحِرفي، تتحسَّن يوماً بعد يوم، إذا كان

وراءها الحماس. ما لم تمارس مهارتك فسوف تفقدها، وتتحوّل إلى إنسان آخر، دون أن تشعر. أليست المهارة والكفاءة، حين تهجرها، تحذيراً لك لكي ترتقي بها، وتعلي من شأنها؟ بذل الجهد الأعظم في استردادها أبهظ من الاحتفاظ بها حينها.

المواهب الذهنية متعدِّدة ومختلفة، ولها أكثر من وصف، النشاط الذهني للمرء يمكِّنه من صون مهارة التجارة لزمن طويل؛ لذلك فإنه من دون العناية الوافية تتناقص المهارة، وتذهب، دفعةً واحدةً، القوّة المعوَّل عليها. سيكون من المستحيل استرداد هذا النشاط الذهني.

قوّة الروح الإنسانية تمتلك ثلاث خواص، يجب التعلُّق بها والاعتزاز بها، بدونها يتحوَّل المرء إلى حيوان:

الأولى تسمّى (عنصر القوة الدافعة)، هذه القوة لا تساعدنا على التركيز والسمع فحسب، بل تمنحنا الإدراك المستنير للسبب والنتيجة. نَهَم القراءة لا ينفع العقل دون هذه الخاصّية، لأنه لا يقدِّم النتيجة أو الفعل المناسب في الوقت المناسب، أو التفكير الصحيح والقول الصحيح في اللحظة المناسبة، وتكون متأخِّراً دائماً، وسوف تضيع منك الفرصة، وتعيش طوال حياتك في غيظ: «يا للأسف، كان عليَّ فعل هذا وذاك، في اللحظة المناسبة».

الثانيـة تُسَـمّى (سـحر قـوّة المقارنـة)، عندمـا تتعلّـم شـيئاً جديـداً تشـرع فـي مقارنتـه بأشـياء مماثلـة. هـل هـذه الأشـياء متماثلـة فـي كل مـكان، أم أن تماثلها فـي بعضهـا، ممـا لـه علاقـة بهـا فحسـب؟ لـن يسـتريح عقلـك حتـى تتمكّـن مـن شـرح المسـبِّبات، وتؤكِّـد الفرضيـات.

الخاصّيـة الثالثـة للـروح الإنسـانية تسـمّى (رقّـة الشعور)، وفيهـا يجـب أن تصـون قلبـك مـن أربـع رذائـل: الغـرور، وحـب المـال، والطيـش، والإهمـال. الانطبـاع الأوّلـي عـن العالـم ينعكـس علـى مـرآة، مثـل طهـارة قلبـك.

هـذه الانطباعـات بمثابـة الغـذاء للعقـل، وهـي تبقـى فـي الذاكـرة إلـى وقـت طويـل. لكـن، إن لـم تحافـظ علـى نقـاء القلـب، مـرآة روحـك، فسـتنمو فـي العتمـة، ويصبـح كل شـيء ضبابيـاً ومشـوَّهاً؛ ومـن ثَـمَّ فـإن فكرتـك عـن العالـم تضحـي مشـوّهة.

كل مـا تكسـبه يأتـي بالعمـل، إلا إذا كنـت علـى درايـة مألوفـة بحَـلّ المشـاكل، سـتجد صعوبـة فـي الاحتفـاظ بمـا لديـك، إلا أنـه مـن الصعـب- بالمقـدار نفسـه- الاحتفـاظ بثروتـك الروحيـة التـي اكتسبتها. وبالمناسبة، يمكـن للتعلُّـم والـذكاء أن يسـبِّبا ضـرراً كبيـراً: عـدم معرفـة هـذا وفقدانـك الحـذر يُخسِّـرانك مـا اكتسـبت.

ثمّة مقياس لكلّ شيء على الأرض، بما في ذلك الأشياء الجيِّدة في الحياة، إنها نعمة عظيمة أن يكون ثمة معنى لهذا القياس، حقيقةً، إن القدرة على التفكير جديرة بالتمجيد، لكن بعض الناس لا يعرفون قياساً لهذا: يفقدون حسن تفكيرهم والفطرة السليمة. على المرء أن يكون معتدلاً في أكله وشربه وفي الترويح عن النفس وفي تحصيله للمال وفي الحيطة والحذر. وكلّ إفراط مُهْلِك.

الحكماء قالوا قديماً: «ما نسعى إليه، بإصرار، نجده شرّاً». يجب أن تعرف صفتَي القوّة الروحية اللتين عرّفناهما بكل من: (سحر قوّة المقارنة)، و(عنصر القوّة الدافعة) فهما تخفيان الأشياء الجيّدة والأشياء الشريرة، في العالم.

الرغبة في السيطرة والأنانية والغضب والخداع وكل ما يلوث الإنسان، تنبع من مصدر واحد؛ لذلك فإن قوّة المرء الروحية يجب أن توجَّه نحو تحسين كلّ ما هو جيِّد ومفيد، ووأد كلّ ما هو فاسد وأثيم، في المهد.

العقل يميِّز مابين المفيد والضارّ، لكن، حتى قوّة العقل لا تهزم الشرّ أحياناً. ينجح، فقط، من يجمع في نفسه بين قوّة العقل وقوّة الإرادة، ويكون مثل الجواد العربي السريع، ويبسط سلطانه على كلّ شيء.

لكن، إن كانت هذه الخواصّ ضعيفة، أو غابت إحداهما، فربّما تنقلك روحانيتك إلى التوحُّش، الجواد الجامح يقذف بك: على الصخور تارةً، وفي الماء تارةً أخرى، أو في لجّ لا قرار له. أنت عاجز أمام هذا التهوُّر وهذه الفوضى، بقفطانك الملوَّن المتطاير وعينيك الشاخصتين إلى السماء...

وحتى آخر أيامك، سوف لن تمسح العار الذي لحق بك.

44

ذاك البائس جدّاً ومعدوم الطموح بين الرجال.

ثمّة تطلُّعات مختلفة. هؤلاء الذين يتوقون إلى شيء لا يناسب قوّة إرادتهم، أهم موهوبون أم لا؟ إنهم متلهِّفون للإطراء، سواء عن استحقاق أم عن غير استحقاق. الناس يخلطون الأشياء، بعضها مع بعض، أحياناً يثقون بفكرة شخص ما عنهم أو فكرته هو عنهم، إنهم يتوقّعون الثناء من الناس الذين يعيشون معهم، وليس من الغريب، تماماً، البعض يتوقون إلى التبجيل والاحترام، وآخرون إلى الثروة، بغضّ النظر عن مصدرها، سواء أكانت من جشع أم كانت من براعة. «الذي أصاب ثروة لا خطيئة له» أو «الثري مشرق الوجه»، هذا ما يقولونه، واعلم أنه لا يلومهم أحد، إنهم يرون الشرف والفضيلة في الثراء، يحكمون على المرء بطرق فاسدة، وهذا هو الحال فعلاً، ولكن، من وجهة نظر إنسانية، هذه أبغض الرذائل.

بعض الناس يقلقون، في توقهم إلى التمجيد والثناء عليهم؛ كونهم أبطالاً، أو أولياء، أو بيات، في حين لا يهتمّ آخرون بنعتهم بالمخادعين. سينفخهم غرور الشهرة، وسيحاولون كسب فائدة، حتى من هذا النعت.

كلّ شخص يطمح إلى شيء ما، ولا يتوق إلى قراءة أفكار الكتب، بل وجوه الناس: «حسناً، هذا يجب أن يكون ممتازاً اليوم، وباستطاعتي كسب شيء ما». قبل أن تكسب معرفة من الكتب، من الضروري- أوّلاً- تطهير الروح من الأفكار القذرة، وساعتها، فقط، يمكنك القراءة.

إذا فضّلت قراءة وجوه الناس لا تفتعل ذلك، محاولاً إظهار روحك بمظهر النقاء، لأنه لا أحد يعرف ما في نفسك. كما يقال: «كلما كانت روحك تتوافر على طيّات وطيّات كنت صلباً ومنيعاً، بحسب الحالة التي تعيش».

إذاً، كوّن رأياً لنفسك، واعرف ما تتعلَّمه، وإلى ماذا أنت توّاق.

45

كلّ الأدلّة على وجود الله الواحد الأحد القدير الصمد تردِّده ألسن آلاف البشر، عبر آلاف السنين، وكلّ الأديان ترى أن الحبّ والعدل من صفات الله سبحانه وتعالى.

نحن لسنا ديمورغوسيّين (مخلوقات مادّيّة)، بل نحن مخلوقات بشرية، نعرف العالم بخلق الخالق. نحن عباد المحبة والعدالة، ويختلف بعضنا عن بعض في كيفية فهم إبداع العليّ القدير.

نحن مؤمنون وعُبّاد، وليس في وسعنا القول إننا نستطيع إجبار الآخرين على الإيمان والعبادة. إن مصدر الإنسانية هما المحبّة والعدالة، إنهما كلّيّة الوجود، وقرار كلّ شيء، إنهما سنّة الخلق الإلهي. حتى طريقة الجواد في ظفره بالفرس تأتي بإظهار الحبّ.

الذي يؤثِر مشاعر الحبّ هو رجل حكيم وعليم.

لا حاجة لاختراع علم أو تعليم، بإمكاننا مشاهدة إبداع الخالق للدنيا، وإدراكه، وفهم التناغم فيه، بعقولنا.

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
•	فتنة الحكاية جون أيديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي

29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلي العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير" - مختارات شعرية	
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبَّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زِينة المعنى (الكتابة ، الخط ، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق (تحوُّلات الصفـوة العارفة في المجتمع العربي الحديث)	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت - ترجمة وتقديم: بوداود عمير
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة: عبدالسلام الغرياني

صدر في سلسلة كتاب الدوحة













يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني **www.aldohamagazine.com**

آباي
كتاب الأقوال

يُعَدّ (أباي) عميد الأدب الكازاخي الحديث، ويعتزّ باللغة الكازاخية وبالشعب الكازاخي. وبالمقابل، يجلّ الكازاخ أديبهم الكبير، ويتغنّون بشعره، وبأدبه، وبقصصه، وبحكمه.

كتب أعماله باللغة الكازاخية القديمة السائدة ذاك الوقت، ذات الحروف العربية، والآن، نجد أعماله باللغة الكازاخية الحديثة وباللغات الأخرى، حيث تُرجِمت مؤلّفاته، وبخاصّة «كتاب الأقوال»، إلى أغلب لغات العالم.



وزارة الثقافة والفنون والتراث
الدوحة - قطر
www.aldohamagazine.com